

شرح

تائية الإلبيري

لأبي إسحاق الإلبيري

المتوفى نحو سنة ٤٦٠ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ

شرح

محمد بن سعيد ابن طوق المُرِّي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين^(١).

أما بعد: فـ"أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره. فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلب حرمانهما بمثل قلة الأدب"، قاله ابن القيم.

وهذا حق؛ فإن طالب العلم إذا كان متحلّيًا بآداب العلم وأخلاق حملته؛ كان حرّيًا أن ينتفع بهذا العلم، وأن يرفعه الله به. ولهذا كان السلف يوصون طالب العلم بالتحلي بالأدب، حتى قال عبدالله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: "كاد الأدب أن يكون ثلثي العلم". وكان يقول: "نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم".

وقد كان السلف يعتنون بالأدب كما يعتنون بالعلم، قال ابن سيرين: "كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم". وقال إبراهيم النخعي: "كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى هديه وسمته وصلاته ثم أخذوا عنه". وقال الإمام مالك: "كانت أُمِّي تُعَمِّني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه". وقد كان يجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء خمسة آلاف، نحو خمس مئة يكتبون والباقيون يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمات.

ولما كانت هذه طريقتهم في تحصيل العلم -يتعلمون الأدب مع العلم-؛ ظهر عليهم أثر العلم في سلوكهم وعبادتهم وتعاملهم، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: "كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تحشُّعه وهذِّيه ولسانه وبصره وبرّه".

(١) أصل هذه الأوراق تفرغ لشرح صوتي على (تائبة الإبيري)، وقد اطلع الشارح على هذه الأوراق قبل نشرها وراجعها.

- [رابط الشرح الصوتي](#)
- [رابط آخر للشرح الصوتي](#)

وهذا يبين عظيم قدر الأدب وضرورة العناية به. وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه". ومن أعظم ما تصان به النفس التحلي بالآداب والأخلاق الفاضلة.

ولهذا اعتنى العلماء بباب الأدب عناية بالغة حتى أفردوه بمصنفات مستقلة؛ ككتاب (الأدب) للبخاري المُسمَّى بـ(الأدب المفرد)، و(مكارم الأخلاق) للخرائطي، و(مساوئ الأخلاق) له، و(روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) لابن حبان.

فينبغي لطالب العلم أن يُولي هذا الباب عنايته، وأن يحرص على الآداب ومكارم الأخلاق، وأن يحذر سفاسفها، وبهذا يسمو المرء ويعلو.

والمرء لا يسمو بغير الأدب * وإن يكن ذا حسبٍ ونسبٍ

وهذه مدارس لتأية أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود التُّجِيبِي الإلبيري الأندلسي، المتوفى نحو سنة ستين وأربع مئة، رحمه الله رحمة واسعة. وكان معروفًا بالزهد وصلاح النفس. له شعر كثير في الزهد والوعظ، وله ديوان مطبوع. وقد كان لأهل الأندلس غرام بحفظ أشعاره.

وقصيدته هذه دليل ناطق على رفعة أدبه وصلاح نفسه؛ فإنها تفيض بالنصح والتذكير، والهداية والتبصير، وهي من خير شعر الوصايا وأبلغه. وقد كان بعض أهل العلم يأخذ طلبته بحفظها.

وكان الإلبيري مع ذلك فقيهاً معظماً في وقته، متبحراً في العلوم الشرعية من فقه وحديث وقرآن، رحمه الله رحمة واسعة.



شرح القصيدة

قال أبو إسحاق الإليري رَحِمَهُ اللَّهُ:

- تَفُتُّ فُوَادَكَ الْإِيَّامُ فَتًّا ١ وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا
وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دُعَاءَ صِدْقٍ ٢ أَلَا يَا صَاحِ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا
أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ غَدْرِ ٣ أَبْتَ طَلَقَهَا الْأَكْيَاسُ بَتًّا
تَنَامُ الدَّهْرَ وَيَحْكُ فِي غَطِيطٍ ٤ بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهَتْهَا
فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى ٥ مَتَى لَا تَرَعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

- تَفُتُّ فُوَادَكَ الْإِيَّامُ فَتًّا ١ وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا

(تَفُتُّ فُوَادَكَ الْإِيَّامُ فَتًّا): يُقَالُ: فَتَّ الشَّيْءَ إِذَا دَقَّهُ وَكَسَرَهُ.

يُرِيدُ أَنْ مَرُورَ الْإِيَّامِ يُوَهِّنُ قُوَّتَكَ، وَيَعْمَلُ فِيكَ عَمَلَهُ؛ فَكُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمُكَ ذَهَبَ بَعْضُكَ، وَيُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ كُلُّكَ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ".

(وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا): يُقَالُ: نَحَتَ الشَّيْءَ يَنْحِتُهُ وَيَنْحِتُهُ؛ بِالْكَسْرِ

وَالْفَتْحِ، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ وَبِهِ قُرِئَ فِي الْمَتَوَاتِرِ: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: (٧٤)].

وَمِنَ اللَّطِيفِ مَا قَالَهُ فِي (مَخْتَارِ الصَّحَاحِ)، قَالَ: "نَحَتَهُ بَرَاهُ، وَبَابُهُ ضَرْبٌ وَقَطْعٌ أَيْضًا". وَفِي قَوْلِهِ هَذَا لَطِيفَةٌ وَهِيَ: أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَضْبِطَ لَكَ الْكَلِمَةَ، يَقُولُ: "مِنْ بَابِ ضَرْبٍ وَقَطْعٍ"؛ يَعْنِي أَنَّ الْمُضَارِعَ يَقُولُ فِيهِ: نَحَتَ يَنْحِتُ (بِالْكَسْرِ) كَضَرْبٍ يَضْرِبُ، وَتَقُولُ فِيهِ أَيْضًا: نَحَتَ يَنْحِتُ (بِالْفَتْحِ) كَقَطْعٍ يَقْطَعُ، وَاللَّطِيفَةُ هِيَ أَنَّ هَذَا مَعْنَى النَحْتِ؛ النَحْتُ ضَرْبٌ وَقَطْعٌ.

قال: (وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا): فمآلك إلى زوال وفناء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

فَإِنْ ٢٦ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن: (٢٦ - ٢٧)].

وَتَدْعُوكَ الْمُنُونَ دُعَاءَ صِدْقٍ ٢ أَلَا يَا صَاحِبَ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا

(الْمُنُونَ): الموت؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ٣٠﴾ [الطور: (٣٠)]؛

أي: نترصد نزول الموت به. فالموت يدعوك دعاءً صادقاً حتى إنك لتكاد تسمع صوته،

وهو نازل بك لا محالة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: (١٨٥)]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا

يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: (٧٨)]، ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ

إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨﴾ [الجمعة: (٨)]. ماذا يقول الموت؟

يقول: (أَلَا يَا صَاحِبَ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا): لا تظن أنك ستبقى على حالك هذه تصلي

على غيرك ولا يُصَلِّي عليك، تُشَيِّعُ غيرك ولا تُشَيِّعُ، وتُهَيِّلُ التراب على غيرك ولا يُهَيِّلُ

التراب عليك؛ فمنيتهك تطلبك. المنية تطلب الخلق كلهم، لكن منيتهك أنت تطلبك ولا

تطلب سواك (أنت أريد أنت).

وقوله (يا صاحب): أصل صاح صاحب، إلا أنه رَحَّمَهُ (أي: حذف آخره)، وترخيّمه

شاذٌّ؛ لأنه لا يجوز ترخيم النكرة، يعني مثلاً: لا تقول في (عالم): يا عالٍ (بحذف آخره)

لأنه نكرة، لكنه سُمِعَ في (صاحب)، سُمِعَ: يا صاح، وهو شاذ والعلة فيه كثرة الاستعمال،

قال الحريري في الملحة:

وقولهم في صاحبٍ يَا صَاحٍ * شَذَّ لِمَعْنَى فِيهِ بِاصْطِلَاحٍ

بعد أن ذُكِرَ بالموت انتقل إلى التحذير من الدنيا، فقال رَحَّمَهُ اللَّهُ:

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْسًا ذَاتَ غَدْرٍ ٣ أَبَتْ طَلَاقَهَا الْأَكْيَاسُ بَيًّا

العِرس امرأة الرجل، ويُقال أيضاً لرجل المرأة، والمقصود هنا الدنيا.

(ذَاتَ غَدْرٍ): لا تستقيم لأحد على حال فهي دار كبد ونصب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ٤﴾ [البلد: (٤)].

(أَبَتْ طَلَاقَهَا): أي طلقها طلاقاً باتاً لا رجعة فيه. (الأكياس): العقلاء. ورد عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: "يا دنيا غُرِّي غيري، قد طَلَّقْتُكِ ثلاثاً لا رجعة فيها". وللشافعي:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطِنَا * تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا * أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا جُحَّةً وَاتَّخَذُوا * صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُنُنَا

تَنَامُ الدَّهْرَ وَيَحْكُ فِي غَطِيطٍ ٤ بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهَتْهَا

يقول: أنت متماد في غفلتك، سادِرٌ في لهوك، (تنام الدهر): يعني لست تنام ساعة وتستيقظ أخرى، أو تغفل تارة وتنتبه أخرى، بل أنت نائم دهرَكَ كله، فمتى تستيقظ! (وَيَحْكُ): ويح كلمة رحمة، وويل (باللام) كلمة عذاب. ويستعمل أحدهما مكان الآخر؛ لذا قيل: إنهما بمعنى واحد. (غَطِيطٍ): الغطيط صوت النائم.

(بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهَتْهَا): لا تستيقظ إلا بعد الموت، لا تستيقظ إلا في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين، هناك حيث لا تغني الندامة، هناك يعلم الغافلون أنهم كانوا مخدوعين بالدنيا، غافلين عما يراد بهم. وهذا يُعزى لعلي رضي الله عنه، يُروى عنه أنه كان يقول: "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا".

فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى ٥ مَتَى لَا تَرَعُوي عَنْهَا وَحَتَّى

يقول: كثيراً ما خدعتك الدنيا، فإلى متى وأنت مقيم على غفلتك (لا ترعوي عنها): أي: لا تكف ولا ترجع عن غيك!



- أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ٦ إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا
إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ٧ مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا
وَيَجْلُو مَا بَعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا ٨ وَيَهْدِيكَ السَّبِيلَ إِذَا ضَلَلْتَا
وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ٩ وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا اغْتَرَبْتَا
يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا ١٠ وَيَقَى ذُخْرَهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا
هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنْدُ لَيْسَ يَنْبُو ١١ تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبْتَا

قال رحمه الله:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ٦ إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا

(أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا): من أبو بكر هذا؟ قيل: هو ابنه، وقيل: صاحب له، وقيل: إنه لم يقصد شخصًا معينًا، بل الكلام موجه لكل منتفع به، وأورده في قالب الخطاب لمعين لأنه رآه أوقع في النفس. وإذا جعلت بضميمة هذا البيت قوله فيما سيأتي -إن شاء الله-:

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقْلَ عِيِي ٨٦ وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا

فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَحَازِي ٨٧ وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا

استبعدت أن يكون ابنه؛ لأن مثل هذا الخطاب لا يكون بين الآباء والأبناء. وإذا جعلت بضميمتهما قوله فيما سيأتي -إن شاء الله- على لسان منصوحه:

وَلَمْ أَتَشَأْ بِعَصْرِ فِيهِ نَفْعٌ ٦٨ وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَ

استبعدت أن يكون صاحبًا له من لداته؛ فإن هذا البيت يدل على التفاوت الكبير في العمر بينهما. فقول: هو شاب هجا أبا إسحاق وأغضى أبو إسحاق الإلبيري عن سبه،

ووسيعه فضله، ووجه له نصائحه. وقد يكون - كما سبق - لم يقصد شخصاً معيناً، بل الكلام موجه لكل منتفع به.

وأياً ما كان؛ فالخطاب والنصح ليس موجهاً لأبي بكر فحسب، بل هو لنا جميعاً.

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا ٦ إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا

يقول: دعوتك إلى ما فيه نفعك إن عقلت، فلو أجبتني إلى ذلك. إلام دعاه؟ قال:

إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا ٧ مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

إلى علم يكون رفعة لك وشرقاً؛ فتكون مطاعاً في أمرك ونهيك، يقتدي بك الناس. وليس المقصود أن يكون قصدك التصدر في المجالس وأن تكون لك الحظوة والمحمدة في قلوب الخلق، بل هو يبين لك ثمة العلم، أن العلم يرفع صاحبه؛ قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: (١١)].

وَيَجْلُوا مَا بَعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا ٨ وَيَهْدِيكَ السَّبِيلَ إِذَا ضَلَلْتَا

(وَيَجْلُوا مَا بَعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا) أو (غشاهها): العشا: ضعف البصر ليلاً. والغشاء: الغطاء.

يقول: إن العلم يُزيل الغشاوة عن عينك ويجعلك تبصر الأمور على حقيقتها. وأصل الغشاوة على العين الغشاوة على القلب، وهذه الغشاوة هي غشاوة الجهل، فمن منفعة العلم لصاحبه أن العلم هو النور الذي يضيء لك الطريق، ويزيل عنك ظلمة الجهل، كما قال الشيخ عبدالرحمن السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في أول منظومته في القواعد:

اعْلَمْ هُدَيْتَ أَنَّ أَفْضَلَ الْمِنَّ * عِلْمٌ يُزِيلُ الشَّكَّ عَنْكَ وَالْدَّرْنَ

وَيَكْشِفُ الْحَقَّ لِذِي الْقُلُوبِ * وَيُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى الْمَطْلُوبِ

وإذا زالت غشاوة الجهل اهتديت إلى الطريق الصحيح، لذا قال: (وَيَهْدِيكَ السَّبِيلَ

إِذَا ضَلَلْتَا).

قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا ٩ وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا اغْتَرَبْتَ

النادي: مجلس القوم ومُتَحَدِّثُهُمْ.

يقول: إن من منفعة العلم لصاحبه أنه يكسبه رفعةً ومكانةً إذا خالط الناس واجتمع بهم؛ فإنه إذا جلس مع الناس جلس وعليه تاج العلم ولباسه وحليته، كما قال: (وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا اغْتَرَبْتَ)، ولباس العلم أجمل لباس. والمقصود أن العلم يرفع صاحبه. (إِذَا اغْتَرَبْتَ): في حلك وأنت في ناديك وفي ارتحالك إذا اغتربت.

هذا عالم من العلماء ركب سفينة مسافرًا في البحر وركب معه في السفينة مجموعة من التجار معهم أموالهم وبضائعهم، فهاج بهم البحر وماج فانكسرت السفينة وذهبت أموالهم وبضائعهم، ثم قذف بهم الموج إلى جزيرة قريبة، فعرف الناس العالم فأكرموه وأفادهم بالعلم والفتوى والتعليم والوعظ، وأما التجار فصاروا مُعْدِمِينَ؛ لأن أموالهم غرقت. فجاءهم البريد وقال لهم: من أراد أن يكتب رسالة إلى أهله فليكتب، فكتب التجار رسائلهم، وكتب العالم إلى أهله: بسم الله الرحمن الرحيم، إذا أردتم أن تتخذوا مالاً لا يغرق إذا انكسرت السفينة؛ فاتخذوا العلم تجارة.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا ١٠ وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَ

(يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا): فتعبد الله على بصيرة، وفيه المنافع السالفة التي ذكرها

في الآيات المتقدمة.

الذخر: ما يُخْبَأُ لوقت الحاجة إليه. (وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَ) بالذكر الحسن، وبه فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: (٨٤)]؛ أي: ذكرًا جميلًا، وثناءً حسنًا. وانظر إلى سير العلماء الذين ماتوا قبل مئات السنين كيف بقي علمهم فينا،

ولا نزال نترحم عليهم ونثني عليهم وندعو لهم إذا ذكرناهم. هذا ما حصلوه بمال ولا بجاه ولا بسلطان، وإنما حصلوه بالعلم النافع.

فَقُزْ بِعِلْمٍ تَعِشَ حَيًّا بِهِ أَبَدًا * النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

وهذا وجه من نفع العلم لصاحبه بعد موته.

ومن نفع العلم لصاحبه بعد موته أنه صدقة جارية يجري للعالم بها أجره، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في صحيح مسلم: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١). والولد الصالح يدعو لأبيه مدة حياة هذا الولد، فإذا مات انقطع الدعاء، أما العلم فيبقى نفعه للعالم ولو بعد موته مئات السنين؛ لذا قالوا: علم الرجل ولده المخلد. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: (١٢)]؛ (ما قَدَّمُوا): أي ما باشروه من الأعمال الحسنة أو السيئة في حياتهم قبل مماتهم. (وآثارهم): أي ما بقي بعدهم في الدنيا من آثارهم الطيبة أو السيئة، ومن أعظم الآثار الطيبة العلم النافع.

وكم من علماء هداة ماتوا قبل مئات السنين وما زالت كتبهم ينتفع بها وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم. وقد قال الخطيب البغدادي في (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) قال: "حدثني محمد بن عليّ الصُّوري قال: رأيت أبا محمد عبدالغني بن سعيد الحافظ في المنام في سنة إحدى عشرة وأربع مئة"، وكانت وفاة عبدالغني الحافظ قبل هذا بستين قال: "فقال لي: يا أبا عبدالله، خرّج وصنّف قبل أن يُحال بينك وبينه، هذا أنا تراني قد حيل بيني وبين ذلك"، قال: "ثم انتبهت".

(١) مسلم: (١٦٣١).

هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنْدُ لَيْسَ يَنْبُو ١١ تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلُ مَنْ ضَرَبَتْهَا

(الْعَضْبُ): أي: السيف القاطع، السيف لا يسمى عَضْبًا إِلَّا إِذَا كَانَ قَاطِعًا.
 (الْمُهَنْدُ): أي: السيف المطبوع من حديد الهند. (لَيْسَ يَنْبُو): يُقَالُ: نَبَا السِّيفُ عَنْ
 الضَّرْبَةِ إِذَا ارْتَدَّ عَنْهَا وَلَمْ يَمْضَ فِيهَا. (مَقَاتِلُ): المقاتل جمع مقتل، وهو الموضع الذي إِذَا
 أَصِيبَ بِهِ الْإِنْسَانُ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ.

شَبَّهَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْعِلْمَ بِالسِّيفِ؛ فَصَاحِبُ الْعِلْمِ قَوِيَّ الْحِجَةِ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ، يُلْزِمُ
 خَصْمَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ بِالْحِجَةِ وَيُصِيبُهُ بِمَقْتَلِ.



- وَكُنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصَّا ١٢ خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا
يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ ١٣ وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدَتَا
فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حُلْوَاهُ طَعْمًا ١٤ لَأَثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدَتَا
وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوَى مُطَاعٌ ١٥ وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنَتَا
وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أُنَيْقُ رَوْضٍ ١٦ وَلَا خِذْرٌ بِرَبْرِبِهِ كِلَفَتَا
فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ١٧ وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأَنْ شَرِبْتَ

لا يزال أبو إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَحْضُكُ النصح ويذكر شرف العلم وفضله، قال

رَحِمَهُ اللَّهُ:

- وَكُنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصَّا ١٢ خَفِيفُ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا

يقول: إن العلم كنز عظيم، وهو يخالف كنوز الدنيا بثلاثة أشياء ذكرها في هذا البيت: الأول: (لا تَخَافُ عَلَيْهِ)؛ بخلاف كنوز الدنيا التي يُخَافُ عليها من اللصوص. الثاني: (خفيف الحمل). والثالث: (يوجد حيث كنتا)؛ بخلاف كنوز الدنيا التي تفارق صاحبها.

وهذه الأوصاف لا تتحقق إلا في من كان علمه في صدره لا في كتبه:

ليس بعلمٍ ما حوى الْقِمَطَرُ * ما العلم إلا ما حواه الصَّدْرُ

وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

عِلْمِي مَعِي حَيْثُمَا يَمُمْتُ يَنْفَعُنِي * قَلْبِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقٍ

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي * أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ:

فإن تُحْرِقُوا القُرطاس لا تُحْرِقُوا الذي * تَضَمَّنَهُ القُرطاس، بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائي * وينزل إن أنزل ويُدفن في قبري
دعوني من إحراق رَقٍّ وكاغِدٍ * وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا للمكاتِبِ بدأةً * فكم دون ما ترجون لله من سِترٍ
وقد قال بعضهم في ذم جمع الكتب وعدم حفظ ما فيها -وهو من أحسن ما قيل
في معناه-، قال:

أما لو أعِي كلَّ ما أَسْمَعُ * وأَحْفَظُ من ذاك ما أَجْمَعُ
ولم أَسْتَفِدْ غَيْرَ ما قد جَمَعْتُ * لَقِيلَ: هو العالم المِصْقَعُ
ولكنَّ نفسي إلى كلِّ شيءٍ * من العلم تسمعه تنزعُ
وأحضرُ بالعيِّ في مجلسٍ * وعِلْمِي في الكُتُبِ مستودعُ
فلا أنا أحفظُ ما قد جَمَعْتُ * ولا أنا من جمعه أشبعُ
ومن يكُ في علمه هكذا * يكنُ دهره القهقري يرجعُ
إذا لم تكنُ حافظًا واعيًا * فجمْعُك للكتُبِ لا ينفعُ

ومن اللطيف أن الفقهاء اختلفوا في المُفْلَس الذي يباع ماله لسداد الديون التي عليه، هل تباع كتبه أو لا؟ قال خليل في مختصره: "ولو كتبًا؛ يعني ولو كان مال المُفْلَس كتبًا فإنها تباع في سداد ديونه. قال بعض الشراح: "لأن شأن العلم أن يُحْفَظ". وإن كان الفقهاء اختلفوا في هذه المسألة؛ بعضهم يقول: إن الحفظ قد ضَعُف شأنه عند كثير من المتأخرين؛ فلذا أجروها على آلة الصانع، وآلة الصانع لا تباع على الصانع؛ مثلاً شخص خياط عنده آلة هي مصدر تكسبه، فلا تباع إذا بيع ماله لسداد ديونه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ ١٣ وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدَتَا

المال من أنفقه في حاجاته نقص، أما العلم فإنه كلما أنفق منه العالم تفجرت ينابيعه وازداد كثرة وقوة وظهوراً. والجزاء من جنس العمل؛ فكما أنه علّم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علمه وزاده علماً. ذكر هذا المعنى ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (مفتاح دار السعادة) واستشهد بما في الصحيحين من أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قال الله عز وجل: "أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ"»^(١)، قال ابن القيم: "وهذا يتناول نفقة العلم؛ إما بلفظه، وإما بتنبهه وإشارته وفحوه". فتعليم العلم من العالم ومن طالب العلم المتأهل من أشرف وسائل تحصيل العلم والازدياد منه.

قال: (وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدَتَا): وهذا أمر ملاحظ مشهود؛ أن من خزن علمه ولم يُعلِّمه ابتلاه الله بنسيانه والذهاب منه؛ جزاءً من جنس عمله. قال ابن حبان في (روضة العقلاء): "ما رأيت أحداً قط بخل بالعلم إلا لم ينتفع بعلمه". وللشيخ محمد فال ولد مُتَّال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وتارك التعليم عاصٍ أبداً * إن كان تركه بلا عذر بدا

وعُذْرُهُ طَلَبُ عَيْشٍ لازِم * أو اشتداد مرضٍ ملازم

وقد قال ربيعة الرأي: "لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يُضيع نفسه". وقال سعيد بن جبیر: "لأن أنشر علمي أحب إليّ من أن أذهب به إلى قبري".

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلَوَاهُ طَعْمًا ١٤ لَأَثَرْتَ التَّعَلَّمَ وَاجْتَهَدَتَا

يقول: لو ذقت حلاوة العلم لأنستك حلاوته كلّ ملذات الدنيا، ولأقبلت على العلم وآثرته على كل شيء. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (روضة المحبين): "وأما عشاق العلم

(١) البخاري: (٤٦٨٤)، ومسلم: (٩٩٣).

فأعظم شغفًا به وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر". قال الشيخ حافظ الحكمي في ميميته:

الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعْتُ * أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِقَمِ
الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُصْوَى وَرُبُّتُهُ الْـ * عَلِيَاءُ فَاسْعَوْا إِلَيْهِ يَا أُولِي الِهِمَمِ
الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ * اللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
الْعِلْمِ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ * أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجُهَالِ فِي الظُّلَمِ
الْعِلْمُ أَعْلَى حَيَاةٍ لِلْعِبَادِ كَمَا * أَهْلُ الْجَهَالَةِ أَمَوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ
وقال آخر:

سَهْرِي لَتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلْدُّ لِي * مِنْ وَصَلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ
وَتَمَائِلِي طَرَبًا لِحُلِّ عَوِيصَةٍ * أَشْهَى وَأَحْلَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
وَصَرِيرِ أَقْلَامِي عَلَى أَوْرَاقِهَا * أَحْلَى مِنَ الدُّوْكَاهِ وَالْعُشَاقِ
وَأَلْدُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدُقِّهَا * نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي
أَبَيْتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيئَتُهُ * نَوْمًا وَتَبَغْيِي بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِي

ولغيره:

مَا لَدَّتِي إِلَّا رَوَايَةُ مَسْنَدٍ * قَدْ قُيِّدَتْ بِفَصَاحَةِ الْأَلْفَاظِ
وَمَجَالِسُ فِيهَا تَحْلُّ سَكِينَةٍ * وَمُذَاكَرَاتُ مَعَاشِرِ الْحُقَاطِ

وقد كان بعض من ذاق حلاوة العلم والعمل والعبادة يقول: "لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه - يعني من النعيم والسرور - لجالدونا عليه بالسيوف".

وهذا يعرض لكثير من المشتغلين بالعلم والعمل وإن اختلفت عباراتهم في وصفه. أبو جعفر النّسفي بات ليلة مهمومًا من ضيق البال وسوء الحال وكثرة العيال، فوقع في خاطره فرع من فروع مذهبه - وكان حنفياً - فأعجب به، فقام يدور في داره ويقول: "أين

الملوك وأبناء الملوك! أين الملوك وأبناء الملوك!"، وهذا يعرض للمشغلين بالعلم كثيرًا. لكن أعجب من هذا أن بعضهم يقول: "إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا النعيم؛ إنهم لفي عيش طيب!"

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة -التي هي عذاب على قلب المحب- يقول عن حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى * فلا خير في من لا يحب ويعشق
فكيف بمحبة العلم النافع والعمل الصالح والقرب من الله والاشتغال بمراضيه! كيف بهذه المحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وهي أكمل اللذات في هذه الحياة الدنيا وأرفعها وأسنها وأعلاها!
يقول:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلَوَاهُ طَعْمًا ١٤ لَأَثَرْتَ التَّعَلَّمَ وَاجْتَهَدْتَ

لأقبلت على العلم وآثرته على كل شيء.

وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوَى مُطَاعٌ ١٥ وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَ

(وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوَى مُطَاعٌ): لو ذقت حلاوة العلم لم تعدل به أي شيء، ولم يشغلك عنه أي شيء، فالعالم الذي ذاق حلاوة العلم لا تشغله عنه الأهواء.

(وَلَا دُنْيَا بِزُخْرُفِهَا فُتِنْتَ): ولا زخارف الدنيا، الزُّخْرُفُ: الذهب هذا الأصل، ثم أطلق على كل زينة.

وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أُنَيْقُ رَوْضٍ ١٦ وَلَا خِذْرُ بَرَبْرَبِهِ كَلَفْتَا

(وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أُنَيْقُ رَوْضٍ): الرّوض: واحدته روضة، وهي الموضع المُنْعَجِب بالزهور. والأُنَيْقُ: الحَسَنُ المُنْعَجِب.

يقول: (وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أُنَيْقُ رَوْضٍ): من ذاق حلاوة العلم لم تشغله عنه البساتين والرياض، فالعلم هو بستان قلبه وهو روضة نفسه. ولمّا ذاق العلماء ذلك تجد أنه سمي

جماعة منهم كتبهم بما قام في نفوسهم من هذا المعنى مثل: (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) لابن حَبَّان، و(روضة الناظر) لابن قدامة، و(رياض الصالحين) و(روض الطالبين) و(بستان العارفين) كلها للنووي، و(روضة المحبين) لابن القيم، و(الروض الأنف) للسَّهيلي، و(الروض المربع) للبُهوتي، و(الأزهار المنتثرة في الأخبار المتواترة) للسيوطي، و(روضة الأفهام في شرح زوائد المحرر على بلوغ المرام) للشيخ عبدالله الفوزان، وغيرها كثير.

وقد تذاكر جماعةُ المنتزهاتِ يومًا وفيهم ابن دريد صاحب الجمهرة والمقصورة، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غُوطَة دمشق، وقال آخرون: بل نهر الأُبُلَّة، وقال بعضهم: بل شِعْبُ بَوَّان - بأرض فارس -، فقال لهم ابن دريد: هذه منتزهات العيون، فأين أنتم عن منتزهات القلوب؟ قالوا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: (عيون الأخبار) للقتبي يعني لابن قتيبة، وذكر كتبًا في الأدب، ثم أنشأ يقول:

وَمَنْ تَلَّ نُزْهَتَهُ قَيْنَةً * وَكَأْسُ نَحْتٍ وَكَأْسُ تُصَبِّ

فَنُزْهَتُنَا وَاسْتِرَاحَتُنَا * تَلَاقِي الْعُيُونَ وَدَرَسُ الْكُتُبِ

قال: (وَلَا خِدْرٌ بِرَبْرَبِهِ كَلِفَتَا): الخدر: ستر يُمدُّ للجارية في ناحية البيت. (بِرَبْرَبِهِ): الرِّبْرَب القطيع من بقر الوحش، شَبَّه النساءَ الجميلاتِ به، والعرب تشبَّه المرأةَ في جمالها بالظباء وبالغزلان وبالنعاج وببقر الوحش وبالأرام، هذا كثير في الشعر. (كَلِفَتَا): كَلِف بالشيء أولع به.

يقول: لم يلهك عنه التعلُّق بالنساء، فمن ذاق حلاوة العلم لم تشغله الملهيات عن العلم. وليس معنى هذا ألا ينال حظه من الدنيا، بل قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: (٧٧)]، لكن ليس على حساب مقصوده الأعظم وهو العلم.

إِذَا كَانَ يُؤْذِيكَ حَرُّ الْمَصِيفِ * وَيُبْسُ الْحَرِيفِ وَبَرْدُ الشِّتَا

وَيُلْهِيكَ حُسْنُ زَمَانِ الرَّيِّعِ * فَأَخْذُكَ لِلْعِلْمِ قُلٌّ لِي مَتَى!

فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي ١٧ وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأَنْ شَرِبْتَ

(فَقُوتُ الرُّوحِ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي): القوت: ما يقوم به بدن الإنسان، فغذاء الروح هو العلم النافع، وهو رُوح؛ لأنه به يحيا القلب، وأعلى ذلك وأرفعه علم الكتاب والسنة. وقد سمى الله القرآن روحًا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: (٥٢)]؛ لأنه به حياة القلب.

(وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأَنْ شَرِبْتَ): الطعام والشراب هو قوت البدن الذي يشترك فيه الإنسان والحيوان، أما قوت الروح وغذاء الروح فهو العلم النافع.

فَوَاطِبُهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ١٨ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ أَخَذْتَ

وَأِنْ أُوتِيَتْ فِيهِ طُولُ بَاعٍ ١٩ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا

فَلَا تَأْمَنُ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُ ٢٠ بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا؟

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقًّا ٢١ وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ: لَقَدْ رَأْسَتَا

وَصَافِي ثَوْبِكَ الْإِحْسَانُ لَا أَنْ ٢٢ تُرَى ثَوْبُ الْإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا

إِذَا مَا لَمْ يُفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا ٢٣ فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ٢٤ فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهَمْتَا

قال رحمه الله:

فَوَاطِبُهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ ١٨ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللَّهُ أَخَذْتَ

(فَوَاطِبُهُ): يُقَالُ: واطبه وواظب عليه ووَظَبَ عليه إذا لازمه وتعهده؛ يتعدى بنفسه وبالحرَفِ ثلاثيًا ورباعيًا. (فَوَاطِبُهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ): يوصيك هنا بالجد في طلب العلم وبذل الجهد في تحصيله، قال يحيى بن أبي كثير: "لا يُستطاع العلم براحة الجسم".

ومن العجيب أن الإمام مسلماً رَحِمَهُ اللهُ أخرج هذا الأثر في صحيحه بإسناده في أحاديث المواقيت، وموطن العَجَب أن الإمام مسلماً رَحِمَهُ اللهُ وضع صحيحه للأحاديث المرفوعة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلماذا روى هذا الأثر عن واحد من صغار التابعين؟ ثم أين وضعه؟ وضعه في أحاديث الصلاة! مسلّم رَحِمَهُ اللهُ رتب روايات حديث عبدالله ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في أوقات الصلاة ترتيباً حسناً استوعب فيه اختلاف الطرق، فأراد أن ينبه القارئ إلى أنه لا يُحَصِّل مثل هذا إلا بعد مشقة وتعب في طلب العلم، ذكره القاضي عياض في (إكمال المُعَلِّم). ولما كان لعبارة يحيى بن أبي كثير وقعها في نفس الإمام مسلم ذكرها في هذا الموضع.

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "الكلمات كلها لا تُنال إلا بحظ من المشقة، ولا يوصل إليها إلا على جسر من التعب". وقال إبراهيم الحربي: "أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم". وقال أبو تمام في قصيدته المشهورة في فتح عمورية:

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا * تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ

وللمتنبي في هذا المعنى:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ * الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

وله أيضاً:

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً * وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

وله أيضاً:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا * تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

فمن أراد العلم فليأخذ بالجد، وليبذل وسعه وطاقته ووقته في تحصيله.

اعْكُفْ عَلَى الْكُتُبِ وَادْرُسْ * تَحْزُ فَخَارَ النُّبُوَّةِ

فَاللهُ قَالَ لِيَحْيَى: * خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةِ

(فَإِنْ أَعْطَاكَ اللَّهُ أَخَذْتَ): لا يكفي لتحصيل العلم أن تجدد في طلبه، بل العلم عطية من الله يهبها من يشاء، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: (١١٣)]، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: (١١٤)].

(فَإِنْ أَعْطَاكَ اللَّهُ أَخَذْتَ): إذا أعطاك الله العلم فقد أخذت خيراً عظيماً تنتفع به في الدنيا والآخرة.

وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طُولَ بَاعٍ ١٩ وَقَالَ النَّاسُ: إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا

يقول: إذا حصلت من العلم قدراً واسعاً أثنى عليك به الناس وقدموك؛

فَلَا تَأْمَنُ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُ ٢٠ بِتَوَيْخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا؟

يقول: فلا تغتر بذلك فإنك مسؤل عن هذا العلم يوم القيامة. وقد ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ ...» وذكر أربعة منها: «وَعَنْ عِلْمِهِ؛ فِيمَ فَعَلَ» ^(١)، وفي رواية: «وماذا عمل فيما علم» ^(٢).

ولله درّ ابن الورديّ إذ قال في لاميته:

في ازدياد العلم إرغام العدى * وجمال العلم إصلاح العمل

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لا يكون الرجل عالمًا حتى يكون بالعلم عاملاً".
وقديماً قيل: "علم بلا عمل كشجر بلا ثمر". وقد كان سفيان الثوري ينشد متمثلاً قول الشاعر:

إذا العِلْمُ لم تعمَلْ به كان حُجَّةً * عليك ولم تُعَذَرْ بما أنتَ حامله

فإن كنتَ قد أُوتيتَ عِلْمًا فإِنَّمَا * يُصَدِّقُ قولَ المرءِ ما هو فاعِلُهُ

(١) الترمذي: (٢٤١٧)، وصححه الألباني.

(٢) الترمذي: (٢٤١٦)، وحسنه الألباني.

وقد قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: "بلغني عن القاسم بن محمد رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل". وللخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ كتاب صغير حجمه عظيم نفعه في هذا المعنى هو (اقتضاء العلم العمل).
قال رَحِمَهُ اللهُ:

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقًّا ٢١ وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ: لَقَدْ رَأَسْتَا

رأس العلم وحقيقته تقوى الله وخشيته، وليس بأن تُصدَّر في المجالس ويُشار إليك بالبنان. قال الشيخ حافظ الحكمي:

ما العلم حملَ شهاداتٍ مزخرفةٍ * بزخرف القول من نشر ومنتظم
بل خشية الله في سرٍّ وفي علنٍ * فاعلم هي العلم كلُّ العلم فالترزم
وفي نصيحة الهلالي:

والعلم ما أكسب خشية العليم * فمن خلا منها فجاهل مُليم
لأنَّه مـيراث الأنبياء * فلم ينله غير الأتقياء

لذلك العلم النافع يظهر أثره على صاحبه في زهده وإقباله على الآخرة، وكلما ازداد علمًا ازداد عملاً وقربًا من الله تعالى. وقد قال سفيان الثوري: "ما ازداد رجل علمًا فازداد من الدنيا قربًا؛ إلا ازداد من الله بعدًا"، نسأل الله العافية.

لذا ينبغي أن نحصر على أن نتمثّل وصية أبي قلابة لأيوب السخيتاني رَحِمَهُ اللهُ، قال أيوب: "قال لي أبو قلابة: يا أيوب، إذا أحدث الله لك علمًا فأحدث له عبادة، ولا يكن همُّك أن تحدث به الناس".

وَصَافِي ثَوْبِكَ الْإِحْسَانُ لَا أَنْ ٢٢ تُرَى ثَوْبُ الْإِسَاءَةِ قَدْ لَبَسْتَا

(وَصَافِي ثَوْبِكَ الْإِحْسَانُ): يُقال: ثوب صافٍ؛ أي: تامٌّ سابغ. (لَا أَنْ تُرَى ثَوْبُ

الْإِسَاءَةِ قَدْ لَبَسْتَا): هذا حثٌّ منه على التحلي بحلية الإحسان والتقوى، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى

ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿[الأعراف: (٢٦)]، ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هِدَاةً مُهْتَدِينَ» (١).

فالإحسان مع الله ومع الخلق هذا الذي ينبغي أن تتحلى به، لا أن تتحلى بشوب الإساءة والتقصير والعصيان.

إِذَا مَا لَمْ يَفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا ٢٣ فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا

(إِذَا مَا لَمْ يَفِدْكَ الْعِلْمُ خَيْرًا): (ما) زائدة:

يا طالبًا خذ فائدة * بعد (إذا) (ما) زائدة

إذا لم تنتفع بالعلم فالجهل خير منه. يعني ينبغي أن يكون علمك علمًا نافعًا، والعلم النافع هو الذي يورث خشية الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾ [الإسراء: (١٠٧ - ١٠٩)].

فالعلم النافع هو الذي يبيك على نفسك، ويورثك خشية ربك. قال عبدالأعلى التيمي: "من أوتي من العلم ما لا يبيكه لخليق أن لا يكون أوتي علمًا ينفع؛ لأن الله تعالى نعت بالعلماء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾ [الإسراء: (١٠٧ - ١٠٩)].

وقد كان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نافعًا» (٢)، وكان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» (٣).

(١) النسائي: (١٣٠٥)، وصححه الألباني.

(٢) ابن ماجه: (٩٢٥)، وصححه الألباني.

(٣) مسلم: (٢٧٢٢).

قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَأِنْ أَلَقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ ٢٤ فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَ

المهاوي: جمع مَهْوَاة وهي الحفرة البعيدة القعر، وتطلق على ما بين الجبلين.
يقول: إذا أدّاك فهمك إلى الانحراف عن الجادة والخروج على الأمة بالأقوال الشاذة
الباطلة، فليتكَ كنت بليد الحس ولم تفهم أصلاً! وما أُنّي أهل البدع والانحراف إلا من سوء
الفهم عن الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



سَتَجْنِي مِنْ ثَمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا ٢٥ وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ وَإِنْ كَبُرْتَ
وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ ٢٦ وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَإِنْ فُقِدْتَ
وَتَذْكُرُ قَوْلِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ٢٧ وَتَغِيْطُهَا إِذَا عَنْهَا شُغِلْتَ
لَسَوْفَ تَعْصُ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ٢٨ وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَ
إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ ٢٩ قَدْ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفَلْتَ
قال رَحِمَهُ اللهُ:

سَتَجْنِي مِنْ ثَمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا ٢٥ وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ وَإِنْ كَبُرْتَ
يقول: من عاش عاجزًا كسولًا عن طلب العلم، فإن الثمرة التي سيحبتها من شجرة
عجزه وكسله هي الجهل، وبئست الثمرة! وقد كان نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيز بالله من
العجز والكسل، قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما في البخاري: "كنت أسمعه يكثر أن يقول: «اللهم
إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل»" (١).

قالت مسائلُ سحنونٍ لقارئها * لن تدرك العلمَ حتى تلغى الصِّبرُ
لا يُدرك العلمَ بطَّالٌ ولا كَسِلٌ * ولا ملولٌ ولا مَن يَألفُ البشرَا
(وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ وَإِنْ كَبُرْتَ): يُقال كَبِرَ (بكسر الباء) إذا أَسَنَّ، وكَبُرَ (بضمها) إذا
عَظُمَ. قال هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه: "كان يقول لنا ونحن شباب: ما لكم لا
تعلّمون! إن تكونوا صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار قوم، وما خير الشيخ أن يكون شيخًا
وهو جاهل!".

(وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ): الجاهل وجوده كعدمه وإن كان حيًّا، والفقهاء
يقولون: المعدوم شرعًا كالمعدوم حسًّا؛ فالجاهل وجوده كعدمه.

(١) البخاري: (٢٨٩٣).

(وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَإِنْ فَقِدْتَ): العالم موجود بأثره وإن ترك الدنيا؛ فالعلماء وإن غابوا بأشخاصهم إلا أنهم حاضرون بعلمهم وآثارهم والدعاء لهم والترحم عليهم، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما يروى عنه:

ففرز بعلم تعش حيًّا به أبدًا * الناس موتى وأهل العلم أحياء
ونظيره قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَمَا مَاتَ فَضَائِلُهُمْ * وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْوَاتُ

وَتَذْكُرُ قَوْلِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ٢٧ وَتَغْیِطُهَا إِذَا عَنْهَا شُغِلْنَا

لَسَوْفَ تَعْضُ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ٢٨ وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْنَا

وفي رواية مكان هذين البيتين:

وَتَذْكُرُ قَوْلِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ * إِذَا حَقَّ بِهَا يَوْمًا عَمَلْنَا

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نُصْحًا * وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْنَا

لَسَوْفَ تَعْضُ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا * وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْنَا

يقول: ستذكر ما أقول لك، فإن عملت بوصيتي وامتثلتها فستحمد ذلك، وإن أهملتها وأعرضت عنها وشُغِلت عن العلم بجمع حطام الدنيا؛ فهناك الندم حيث لا ينفع الندم.

والعاقِل ينظر في العواقب؛ فالأمور بعواقبها. من سافر إلى بلد الأمن والسرور والخصب، صبر على ما في الطريق من المشاق والمصاعب؛ حتى يحمد إذا وصل سُرَّاه.

عند الصباح يحمد القوم السرى * وفي الممات يحمد القوم التقى

وقل مثل ذلك في العمل للآخرة؛ العمر كله قصير، فهو بالنسبة للآخرة كساعة من

نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَتُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: (٣٥)]. فهذا

التعب في هذا العمر القصير من أجل سعادة أبدية سرمدية ليس بكثير، لكنه توفيق من الله.

لا تؤثر الأدنى على الأعلى فإن * تفعل رجعت بذلة وهوان

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ ٢٩ قَدْ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفَلْنَا

(إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ): في منزلة عالية.

(قَدْ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفَلْنَا): بفتح الفاء، وضُمُّها لغة، وحُكي فيها التثنية،

لكن المُقَدَّم الفتح.

هذه القصيدة الاختلاف بين نسخها كثير، أحياناً البيت الواحد يُروى على أربعة

أوجه أو خمسة. وهنا في بعض النسخ زيادة البيت:

فَرَا جَعَهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَا * فَمَا بِالْبُطْءِ تُذْرِكُ مَا طَلَبْنَا

يقول:

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ ٢٩ قَدْ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفَلْنَا

(فَرَا جَعَهَا) هذا على زيادة البيت.

وأما على النسخة التي ليس فيها هذا البيت؛ فقد يكون متعلقاً بما قبله يعني: وما

تغني الندامة إن ندمت إذا أبصرت صحبك في سماء.

يقول: إذا أبصرت أصحابك قد فاقوك لما حصّلوه من العلم؛ فراجع نفسك ودع

عنك الكسل والتواني والخلود إلى الدعة والراحة؛ فالمعالي لا تنال بالكسل.

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي * وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهَرَ اللَّيَالِي

وَمَنْ رَامَ الْعُلَا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ * أَضَاعَ الْعُمْرَ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ

تَرُومُ الْعِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا * يَغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّالِي

ومن أصدق ما يُصوّر لك هذا الذي قاله ما أخرجه الحاكم في مستدركه وغيره، وهو ثابت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قال: "لما مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت لرجل من الأنصار: هلم يا فلان فلنطلب العلم؛ فإن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحياء. قال: عجباً لك يا ابن عباس! ترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فيهم! قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فتركت ذاك وأقبلت أطلب"، وذكر خبره في طلب العلم، وأنه كان يجلس على باب الرجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يسمع منه الحديث الواحد فتسفي الريح على وجهه فيخرج له ويحدثه، إلى أن قال: "فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رأيي وقد اجتمع الناس حولي يسألونني، فقال: هذا الفتى كان أعقل مني" (١).

- وَلَا تَحْفَلْ بِمَالِكَ وَالْهَ عَنهُ ٣٠ فَلَيْسَ الْمَالُ إِلَّا مَا عِلِمَتَا
وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنَى ٣١ وَلَوْ مَلِكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأْتَى
سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ ٣٢ وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبَا
وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي ٣٣ إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمَتَا
جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلًا ٣٤ لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بَنْصُ الْوَحْيِ بَوْنٌ ٣٥ سَتَعْلَمُهُ إِذَا (طَه) قَرَأْتَا

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

- وَلَا تَحْفَلْ بِمَالِكَ وَالْهَ عَنهُ ٣٠ فَلَيْسَ الْمَالُ إِلَّا مَا عِلِمَتَا

(ولا تحفل بمالك): يقال: ما حفله وما حفَل به إذا لم يبال به، ومضارع حفل يحفل (بكسر الفاء) ويُقال: احتفل به أي: عني به واهتم. (ولا تحفل بمالك): أي: لا تبال به.

ويُروى: (ولا تختَلْ بِمالِكَ) من الاختيال. يقول: لا تتكبر وتعجب بمالك. (وَالَهُ عَنْهُ): يُقال: لِهَيَّ عن الشيء إذا سلا عنه وترك ذكره وأضرب عنه. ويُقال أيضًا: لهوت عنه ألهو، والأمر منه: أله عنه؛ أي اتركه. (فَلَيْسَ الْمَالُ إِلَّا مَا عِلِمْتَا):

يقول: لا تجعل المال منتهى همك ومبلغ علمك؛ وقد علمت حقارته وأنه ظل زائل سرعان ما تفارقه أو يفارقك.

والمال الحقيقي الذي ينفعك هو العلم النافع، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كانت الدنيا همَّه، فَرَّقَ اللَّهُ عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يَأْتِهِ من الدنيا إِلَّا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة نيَّته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١).

وَلَيْسَ لِجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنَى ٣١ وَلَوْ مَلِكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأْتَى

يقول: إن الجاهل لا وزن له عند الناس ولو ملك ما ملك من الأموال. وإنما ذكر العراق؛ لأنها كانت حاضرة العالم الإسلامي آنذاك.

سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ ٣٢ وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَ

(سَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدِيٍّ): الندي والنادي مجتمع القوم ومتحدثهم. يقول: إن علمك سوف يُعرب عنك في مجامع الناس.

(وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْتَ): يقول: إذا كتبت العلم فسيكتب عنك الناس، كما قالوا: لا يكون الرجل رُحْلة حتى يكون رُحْلة. الرُحْلة الذي يُرْحَل إليه، والرُحْلة (بفتح الحاء) الذي يَرْحَل ويكثر الرحلة إلى العلماء؛ أي: لا يُرْحَل إليه حتى يَرْحَل هو قبل ذلك إلى العلماء. فكَذلك لا يُكْتَب عنه حتى يكون هو كتب عن العلماء.

(١) ابن ماجه: (٤١٠٥)، وصححه الألباني.

وَمَا يُغْنِيكَ تَشِيدُ الْمَبَانِي ٣٣ إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَ

يُقال: شَادَ الحائِطَ يَشِيدُهُ؛ إِذَا طَلَاهُ بِالشَّيْدِ، والشَّيْدُ مَا طُلِيَ بِهِ حَائِطٌ مِنْ جِصٍّ وَنَحْوِهِ، فَالْمَبَانِي الْمَشِيدَةُ هِيَ الْمَطْلِيَّةُ بِالشَّيْدِ. وَتَطْلُقُ أَيْضًا عَلَى الْمَرْفُوعَةِ الْعَالِيَةِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا أَطَالُوا الْبِنَاءَ طَلَوْهُ بِالشَّيْدِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: (٧٨)].

يقول: إِنَّهُ لَيْسَ يَنْفَعُكَ شَيْئًا أَنْ تَشِيدَ الْمَبَانِي وَقَدْ هَدَمْتَ نَفْسَكَ بِالْجَهْلِ.

جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلًا ٣٤ لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا

يقول: قَدِمْتَ الْمَالَ عَلَى الْعِلْمِ وَفَضَّلْتَ الْإِشْتَغَالَ بِالدُّنْيَا عَلَى الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ، وَهَذَا جَوْرٌ فِي الْحُكْمِ؛ لِذَا قَالَ: (لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا). وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ حَالَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ٧ ﴿[الروم: (٧ - ٦)]. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّازٍ صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ»^(١)، الْجَعْظَرِيُّ: الْفُظُّ الْغَلِيظُ الْمُتَكَبِّرُ، وَالْجَوَّازُ: الْجَمْعُ مِنَ الْمُنَوَّعِ، وَقِيلَ: الْمَخْتَالُ فِي مَشِيَّتِهِ، وَالصَّخَّابُ: كَثِيرُ الصِّيَاحِ. قَالَ: «جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ، حَمَارٌ بِالنَّهَارِ، عَالِمٌ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، جَاهِلٌ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ»، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

قال:

وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ ٣٥ سَتَعْلَمُهُ إِذَا (طَه) قَرَأْتَا

(وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ): الْبَوْنُ الْبُعْدُ، يُقَالُ: بَيْنَهُمَا بَوْنٌ؛ أَي: بَيْنَ دَرَجَتِهِمَا وَاعْتِبَارِهِمَا فِي الشَّرَفِ. وَأَمَّا فِي التَّبَاعَدِ الْجَسْمَانِيِّ فَتَقُولُ: بَيْنَهُمَا بَيْنٌ (بِالْيَاءِ). الْبَوْنُ (بِالْوَاوِ) لِلْمَعْنَوِيِّ، وَالْبَيْنُ (بِالْيَاءِ) لِلْبُعْدِ الْحَسِيِّ.

(١) ابن حبان: (٧٢)، والبيهقي في الكبرى: (٢٠٨٠٤)، وضعفه الألباني، وصححه إسناده الشيخ الأرنؤوط.

(ستعلمه إذا (طه) قرأتا): إذا قرأت (طه) فسترى أنَّ بين العلم والمال بونًا بعيدًا وفرقًا شاسعًا وتفاوتًا عظيمًا. في سورة (طه) أمر الله نبيه بالاستزادة من العلم فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: (١١٤)]. ونهاه عن مد العين إلى الدنيا وما فيها من مال ومُتَمَّع، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، ثم قال: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: (١٣١)]. ويدخل في هذا الرزق المذكور هنا رزق العلم فهو خير وأبقى.

وفي وصية علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَكُمَيْل بن زياد النخعي قال: "العلم خير من المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على الإنفاق -وفي رواية على العمل- والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه. ومحبة العلم دين يُدان به. العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحداث بعد وفاته، وصناعة المال تزول بزواله. مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر؛ أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة". قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في (جامع بيان العلم وفضله): "هو حديث مشهور عند أهل العلم يستغني عن الإسناد لشهرته عندهم"، وأقره ابن القيم في (إعلام الموقعين)، وشرحه في (مفتاح دار السعادة) في أكثر من ثمانين صفحة، وذكر أربعين وجهًا يُعلم منها فضل العلم على المال.

وإن فاتك شيء؛ فلا يفتك أن تقرأ كلامًا قيمًا لابن القيم عن فضل العلم وشرفه في صدر كتابه (مفتاح دار السعادة)؛ فهو من أحسن المواضع التي تكلمت عن شرف العلم، ساق فيه أكثر من مئة وخمسين وجهًا في بيان فضل العلم وشرفه ووجوه ذلك وآثاره، فامتّع وأطرب وأتى بكل بديع.

لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ٣٦ لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا
وَأِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا ٣٧ لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا
وَأِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ ٣٨ لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا
وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي ٣٩ فَكَمْ بِكَرٍ مِنَ الْحِكْمِ افْتَضَّضْتَا
وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الْإِقْتَارُ شَيْئًا ٤٠ إِذَا مَا أَنْتَ رَبُّكَ قَدْ عَرَفْتَا
فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ ٤١ إِذَا بِفَنَاءٍ طَاعَتِهِ أَنْخَتَا

عقد الناظم هنا مقارنة بين صاحب العلم وصاحب المال.

قال:

لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ ٣٦ لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا

(لَئِنْ رَفَعَ الْغَنِيُّ لِوَاءَ مَالٍ): اللواء الراية التي يمسكها صاحب الجيش، والعرب تضع اللواء موضع الشهرة.

يقول: إذا اشتهر الغني بماله فقد اشتهر صاحب العلم بالعلم الذي هو أشرف من المال (لَأَنْتَ لِوَاءَ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْتَا).

وَأِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا ٣٧ لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا

(وَأِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا): الحشايا: جمع حَشِيَّة وهي الفراش المحشو الذي يريح الجالس، (لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا) فصاحب العلم له المنزلة العالية التي لا يصل إليها أحد، يكفي في هذا قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: (١١)].

وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوِّمَاتٍ ٣٨ لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَ

(وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ): الجياد: جمع جواد للفرس الذريع السريع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: (٣١)]. (مُسَوِّمَاتٍ): الخيل المسومة: هي المُعلَّمة، وإنما تجعل لها السُّومة -أي: العلامة- تنويهاً بكرمها؛ ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: (١٤)].

(لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَ): المناهج: جمع منهاج ومنهج وهو الطريق الواضح. إذا ركب صاحب المال أفضل الخيول لتوصله إلى مطالبه الدنيوية، فقد ركب مناهج التقوى التي توصلك إلى جنات النعيم. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» (١).

وَمَهُمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْعَوَانِي ٣٩ فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكَمِ افْتَضَّضَتَا

(وَمَهُمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْعَوَانِي): العواني: جمع غانية وهي الجارية التي غنيت بزوجها، فهي الشابة المتزوجة. وتطلق الغانية أيضاً على التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحلي. (فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الْحِكَمِ افْتَضَّضَتَا):

يقول: إذا استمتع صاحب المال بالنساء فصاحب العلم يلتذ بما يفتح الله له من بدائع الحكم ونفائس العلوم.

سَهْرِي لَتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلْدُّ لِي * مِنْ وَصَلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ

وَلَيْسَ يَضُرُّكَ الْإِقْتَارُ شَيْئًا ٤٠ إِذَا مَا أَنْتَ رَبَّكَ قَدْ عَرَفْتَ

الإقتار هو الفقر، يُقال: أقتر الرجل إذا افتقر.

(١) مسلم: (٢٦٩٩).

يقول: إنه لا يضرك الفقر وقلة المال وضيق العيش ما دمت عارفاً بربك مجتهداً في القيام بحقه. فمن وجد الله فماذا فقد! ومن فقد الله فماذا وجد! من وجد الله وجد كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء.

فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ ٤١ إِذَا بِفَنَاءٍ طَاعَتِهِ أَنْخَتَا

يقال: أناخ بالمكان إذا أقام به ولزمه.

يقول: كم لك عند الله من جميل إذا لزمته طاعته وأقبلت عليها! فالله سبحانه وتعالى بكرمه جعل للطاعة والحسنة آثاراً محبوبة جميلة طيبة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "إنَّ للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق".

فَقَابِلِ بِالْقَبُولِ صَاحِبِ نُصْحِي ٤٢ فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَ

وَأِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلًا وَفِعْلًا ٤٣ وَتَاجَرْتَ إِلَيْهِ بِهِ رِبْحًا

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ٤٤ تَسُوءُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتًا

وَعَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا ٤٥ كَفَيْتُكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَ

سُجِنْتَ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ ٤٦ فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنَتْ

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ ٤٧ سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَ

ثم حث الناظم المنصوح -وكلنا ذلك المنصوح- حثه على قبول هذه النصائح النافعة، وامتنالها وعدم الإعراض عنها، فقال:

فَقَابِلِ بِالْقَبُولِ صَاحِبِ نُصْحِي ٤٢ فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَ

وذلك لأن هذه النصائح مبنية على الكتاب والسنة، ومن أعرض عنها ناله من الخُسْر بقدر إعراضه.

وإن راعيته قولا وفِعْلاً ٤٣ وتاجرت إليه به ربحتا

وفزت وانتفعت. ولاحظ أنه قال (ربحت)؛ أخبر بالماضي لتحقيق وقوعه كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: (٧٣)]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: (٧١)]، هذا لم يقع بعد لكنه عُبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه؛ ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: (١)]، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ أي أنه لم يقع لكن قال: (أتى)؛ لأنه متحقق الوقوع:

ومنه ماض عن مضارع وضع * لكونه محققاً نحو (فزع)

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: (٨٧)].

(وتاجرت إليه به ربحتا): ربحك متيقن، وهذا فيه إشارة إلى أن العمل الصالح تجارة رابحة مع الله. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُمُ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية [الصف: (٩ - ١٠)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: (٢٩)]. وفي المقابل ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: (١٦)].

ثم انتقل إلى التحذير من الدنيا وشهواتها فقال:

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ ٤٤ تَسْوُءُكَ حِقْبَةً وَتَسُرُّ وَقْتًا

(حِقْبَةً): أي مدة.

يقول: إن الدنيا لا تساوي شيئاً، يتقلب فيها الإنسان بين سرور وحزن، فلا يصفو للإنسان فيها عيش. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ، مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» (١).

هذا حال الدنيا (تسوئك حِقْبَةً وتسُرُّ وقتاً).

(١) الترمذي: (٢٣٢٠)، وابن ماجه: (٤١١٠)، وصححه الألباني.

وقد ذكر الحسن اليوسي في كتابه (المحاضرات في اللغة والأدب) عن شيخ له أنه كان ينشدهم كثيراً تحريضاً على جميل الصبر، وتعريضاً بتقلبات الدهر، وهم إذ ذاك صبيان، كان ينشدهم كثيراً قول الشاعر:

ثَمَانِيَّةٌ تَجْرِي عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ يَلْقَى الثَّمَانِيَّةَ
سُرُورٌ وَحُزْنٌ وَاجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ * وَيُسْرٌ وَعُسْرٌ ثُمَّ سُقْمٌ وَعَافِيَةٌ

وَعَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا ٤٥ كَفَيْتُكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَ

الفيء: هو ما بعد الزوال من الظلّ، سمي فيئاً لرجوعه من جانب إلى جانب. يقال: فاء إذا رجع ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: (٩)]، حتى ترجع إلى أمر الله.
(أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَ): الحُلْم والحُلُم لما يراه النائم، وفعله حَلَمَ (بفتح اللام في الماضي)، يَحْلُم (بضمها في المضارع). أما حَلَمَ (بالضم في الماضي) فهو من الحِلْم بمعنى الأناة.

يقول: إن الدنيا سريعة التقضي فهي كالظل الزائل وكالحلم الذي يراه الإنسان في منامه.

كتب رجل إلى أخ له، أما بعد: "فإن الدنيا حُلْم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام، والسلام".

انظر إلى ما فات من عمرك كأنه أضغاث أحلام؛ سنوات مرت بأفراحها وأتراحها وحلوها ومرها كلمح البصر، لكن بقي الحساب. فهل يليق بالعاقل أن يشتغل بهذا الحُلْم عن حياته الحقيقية!

وكان الإلبيري رَحِمَهُ اللَّهُ ناظر في تشبيهه الدنيا بالظل إلى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا! إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا كِرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١).

(١) الترمذي: (٢٣٧٧)، وابن ماجه: (٤١٠٩)، وصححه الألباني.

ولأبي الحسن التهامي في هذا المعنى:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي * مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارٍ قَرَارٍ
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مَخْبِرًا * حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا * صَفَوْا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا * مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ
فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ * وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٌ سَارِي
وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ * مُتَقَادَةٌ بِأَزْمَةِ الْأَقْدَارِ
فَاقْضُوا مَا رِبَكُمُ عَجَالًا إِنَّمَا * أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ
وَتَرَكَضُوا خَيْلَ الشَّبَابِ وَحَاذِرُوا * أَنْ تُسْتَرَدَّ فَإِنَّهُمْ عَوَارِي

سُجِنَتْ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُجِبٌّ ٤٦ فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنَتْ

(سُجِنَتْ بِهَا): فالدنيا كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ

الْكَافِرِ»^(١). (فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنَتْ).

فالمؤمن مسجون في هذه الدنيا، كيف يحب العاقل سجنه!

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ ٤٧ سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا مِنْهَا طَعِمْتَ

يقول: وإن الدنيا تطعمك الطعام وأنت فوقها، فإذا صرت تحتها فإنها ستطعمك،

ولن تُبقي منك شيئًا إلا عظمًا واحدًا هو عَجَبُ الذَّنْبِ. في الصحيحين عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ

يَرْكَبُ»^(٢).

(١) مسلم: (٢٩٥٦)

(٢) البخاري: (٤٨١٤)، ومسلم: (٢٩٥٥).

وعجب الذنب عظم لطيف في أسفل الصلب، في أسفل العمود الفقري (العصعص)، ورأسه عجب الذنب، وهو أول ما يخلق من الآدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه.

وَتَعْرِىٰ إِن لَّبِستَ لَهَا ثِيَابًا ٤٨ وَتُكْسَىٰ إِن مَلَابِسَهَا خَلَعْتَ
وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنٍ خَلًّا ٤٩ كَأَنَّكَ لَا تُرَادُّ بِمَا شَهِدْتَ
وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرْهَا وَلَكِنْ ٥٠ لِتَعْبُرَهَا فَجَدَّ لِمَا خُلِقْتَ
وَإِنْ هُدِمْتَ فَرَدَّهَا أَنْتَ هَدْمًا ٥١ وَحَصَّنَ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَىٰ مَافَاتٍ مِنْهَا ٥٢ إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَ
فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ فِيهَا ٥٣ مِنْ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَ

لا يزال أبو إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ يُحذِّر من الدنيا وشهواتها، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَتَعْرِىٰ إِن لَّبِستَ لَهَا ثِيَابًا ٤٨ وَتُكْسَىٰ إِن مَلَابِسَهَا خَلَعْتَ

يقول: إذا اشتغلت بالدنيا فستعري من الإيمان والخير؛ فإنه ما اشتغل أحد بالدنيا وجعلها همه إلا أضرَّ بآخرته.

(وَتُكْسَىٰ إِن مَلَابِسَهَا خَلَعْتَ): يقول: وإذا تركت الاشتغال بالدنيا ولم تجعلها همك

فستكسى بحلل الإيمان ولباس التقوى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: (٢٦)].

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنٍ خَلًّا ٤٩ كَأَنَّكَ لَا تُرَادُّ بِمَا شَهِدْتَ

يقول: إنه لا يمر عليك يوم إلا وأنت تفارق فيه أناسًا، منهم من هم في سنك،

ومنهم من هم أصغر منك، وأنت تحضر دفنهم وكأن هذا الأمر لا يعينك!

تَأْهَبُ لِلَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ * فَإِنَّ الْمَوْتَ مِيعَادُ الْعِبَادِ

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥) [الأنبياء: (٣٤ - ٣٥)]. فالأيام تمضي بسرعة، والخلق كلهم إلى زوال ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٣٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ [الرحمن: (٢٦ - ٢٧)].

كُلُّ نَاعٍ فَسَيْئَعِي * كُلُّ بَاكِ فَسَيْئَكِي

كُلُّ مَذْخُورٍ سَيْفِي * كُلُّ مَذْكَورٍ سَيْئَسِي

لَيْسَ غَيْرُ اللَّهِ يَبْقَى * مَنْ عَلاَ فَاللَّهُ أَعْلَى

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلَأٌ وَمَهْرُبٌ * مَتَى حُطَّ ذَا عَنْ نَعَشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ

نُشَاهِدُ ذَا عَيْنَ الْيَقِينِ حَقِيقَةً * عَلَيْهِ مَضَى طِفْلٌ وَكَهْلٌ وَأَشِيبُ

وَلَكِنْ عَلاَ الرَّاى الْقُلُوبَ كَأَنَّنَا * بِمَا قَدْ عَلِمْنَاهُ يَقِينًا نُكَذِّبُ

نُؤَمِّلُ آمَالًا وَنَرْجُو نِتَاجَهَا * وَعَلَّ الرَّدَى مِمَّا نُزَجِّيه أَقْرَبُ

وَنَبْنِي الْقُصُورَ الْمُشْمَخِرَاتِ فِي الْهَوَا * وَفِي عَلِمْنَا أَنَّا نَمُوتُ وَتَخَرَّبُ

إِلَى اللَّهِ نَشْكُو قَسْوَةً فِي قُلُوبِنَا * وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَاعِظُ الْمَوْتِ يَنْدُبُ

وذكر الموت يزهد في الدنيا ويحمل على الاستعداد للآخرة؛ لذا أمر النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزيارة القبور، وبالإكثار من ذكر هادم اللذات؛ الموت. قال سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللَّهُ: "لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يَفْسُدَ عليّ".

يَا مَنْ بِدُنْيَاهُ اشْتَغَلَ * وَغَرَّهُ طَوْلُ الْأَمَلِ

الْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً * وَالْقَبْرُ صَنْدُوقُ الْعَمَلِ

(وَلَمْ تُخْلَقْ لَتَعْمُرْهَا وَلَكِنْ لَتَعْبُرْهَا)؛ فالدنيا دار ممر لا دار مقر. يُروى عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان يقول: "اعبروا الدنيا ولا تعمروها". وفي هذا المعنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما في البخاري: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»^(١). وهذا حثٌّ على قِصَرِ الأملِ واغتنامِ ساعات الدنيا، قال ابن الوردي رَحِمَهُ اللَّهُ في لاميته:

قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ * فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ

ومن طال أمله ساء عمله.

وإذا كان أحدنا لا يدري متى يأتيه الموت، فإنه ينبغي أن يكون مستعداً للرحيل في كل وقت، وأن لا يركن إلى الدنيا، وأن يكون حظه منها حظ الغريب الذي سيفارق البلد الذي هو فيه، أو حظ المسافر الذي يكفيه من الزاد ما يبلغه غايته. وقد أدرك ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذه الموعظة وأخذ منها ثلاث وصايا أرشد غيره إليها: الأولى: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء": يعني إذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالبقاء إلى الصباح بل انتظر الموت كل وقت، وإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالبقاء إلى المساء بل انتظر الموت كل وقت، وهذا حثٌّ على قصر الأمل. والثانية: "وخذ من صحتك لمرضك": وهذا حث على اغتنام أوقات الصحة والعافية. والثالثة: "ومن حياتك لموتك": وهذا حث على اغتنام ساعات العمر.

إذا علمت أنك لم تُخْلَقْ لتعمر الدنيا بل لتعبرها فما الذي ينبغي أن تفعله قال:

وَلَمْ تُخْلَقْ لَتَعْمُرْهَا وَلَكِنْ لَتَعْبُرْهَا فَجِدْ لِمَا خُلِقْتََا

اجتهد فيما خلقت له من عبادة الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾

[الذاريات: (٥٦)].

(١) البخاري: (٦٤١٦).

وَأِنْ هُدِمَتْ فِرْدَهَا أَنْتَ هَدَمًا ٥١ وَحَصَّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَ

هذا حث على العمل للآخرة وتحذير من الانكباب على الدنيا والاشتغال بها على حساب الدين. وليس المقصود الأمر بتخريب الدنيا، ولا ترك ما أباحه الله، فقد كان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي»^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: (٧٧)]، وقد أثنى الله تعالى على الذين يقولون في دعائهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: (٢٠١)]. لكن المقصود أن تعمل للآخرة وأن تحذر من الانكباب على الدنيا.
(وَحَصَّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَ): لا تدع جدار دينك يُهدم بل حصنه ما استطعت.

وكل كسر الفتى فالدين يجبره * وما لكسر قناة الدين جبران

وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَافَاتٍ مِنْهَا ٥٢ إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُرْزَا

إذا وفقك الله للعمل للآخرة فلا تلتفت إلى الدنيا، ولا تأس على ما فاتك منها ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: (١٣١)].

فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نَلْتَفِيهَا ٥٣ مِنْ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرْمَتَا

إذا حصلت ما حصلت من الدنيا ثم حرمت الآخرة فهل ينفعك ما حصلته من الدنيا؟ الجواب لا؛ فالدنيا ليست بشيء ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: (١٦ - ١٧)]، ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: (٢١)]. في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُؤْتَى بِأَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْعَةً، ثُمَّ يَقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ

(١) مسلم: (٢٧٢٠).

نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ويؤتَى بأشدّ الناس بُؤْسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصْبَعُ صَبْعَةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مرّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ما مرّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ»^(١).

قال رَحِمَهُ اللهُ:

- وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ لَهُوًا ٥٤ فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَ
وَكَيْفَ لَكَ الشُّرُورُ وَأَنْتَ رَهْنٌ ٥٥ وَلَا تَذِرِي أَتْفَدِي أَمْ غَلِقْتَا
وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا ٥٦ وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا
وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اغْتِرَافًا ٥٧ بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بُنْ مَتَّى
وَلَا زِمْ بَابَهُ قَرَعًا عَسَاهُ ٥٨ سَيَفْتَحْ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَ
وَأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الْأَرْضِ دَابًّا ٥٩ لِتُذَكَّرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا
وَلَا تَقُلِ الصَّبَابَ فِيهِ مَجَالٌ ٦٠ وَفَكَّرْكُمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا

قال رَحِمَهُ اللهُ:

- وَلَا تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ لَهُوًا ٥٤ فَإِنَّكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَ

يُحَذِّرُ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ تَضْيِيعِ الْوَقْتِ فِي مَجَالِسِ الْلَهُوِ وَمِنَ الضَّحِكِ مَعَ السُّفَهَاءِ؛ فَإِنْ عَاقَبَهُ الضَّحْكُ مَعَهُمْ سَتَكُونُ الْبُكَاءُ فِي وَقْتٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ الْبُكَاءُ، ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: (٨٢)]. وقد قال بعضهم يوصي ابنه بالجد والابتعاد عن اللهو ومجانبة قرناء السوء:

بُني اجتهد وادرس وزاحم ونافس * ولا تتجمّع في رحاب المدارس
وكن باحثًا عن فهم كل عويصة * بذهن يُرى مستيقظًا غير ناعس

(١) مسلم: (٢٨٠٧).

وكسّر جموع اللهو واصرم حبالها * وكن في جموع الخير أول جالسٍ
وجانب قرين السوء والزم بعباده * فقربك منه مُوقع في المَنَاحِسِ

قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَكَيْفَ لَكَ الشُّرُورُ وَأَنْتَ رَهْنٌ ٥٥ وَلَا تَذَرِي أَتْفَدِي أَمْ غَلَقْتَا

(وَكَيْفَ لَكَ الشُّرُورُ): وفي رواية: (ومن لك بالسرور).

(وَلَا تَذَرِي أَتْفَدِي أَمْ غَلَقْتَا): يُقال: غَلَقَ الرَهْنُ إذا لم يقدر صاحبه على تخليصه من يد المُرْتَهِنِ فصار مِلْكَاً للمُرْتَهِنِ. كان هذا في الجاهلية، أما في الإسلام فورد في الحديث: «لَا يَغْلُقُ الرَّهْنُ مِنْ صَاحِبِهِ الَّذِي رَهْنَهُ؛ لَهُ غُنْمُهُ وَعَلَيْهِ غُرْمُهُ»^(١). وفي نسخة: (أَمْ غُلِّقْتَا): والغُلُّ طوق من حديد يُجعل في العنق، يُقال: غُلٌّ إذا جُعِلَ ذلك في عنقه فهو مغلول.

يقول: كيف تُسر وأنت رهن أعمالك لا تدري أتنجو أم لا!

وَسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ فِيهَا ٥٦ وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا

كل خير فأصله توفيق الله للعبد، والتوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك، وألا يكلك إلا إليه سبحانه وتعالى.

وإذا أراد الله أن يوفق عبده أعطاه مفتاح التوفيق؛ وهو الدعاء والافتقار وصدق اللجأ إليه - سبحانه - والإخلاص في سؤاله. لذا قال: (وسل من ربك التوفيق فيها). وكان من دعائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

(وَأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ إِذَا سَأَلْتَا): ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: (٢٩)].

(١) أخرجه الشافعي (٣٢٤)، والدارقطني: (٣٠٣) وغيرهما، وضعفه الألباني في الإرواء: (١٤١٠).

(٢) أبو داود: (٥٠٩٠)، وأحمد: (٢٠٤٣٠)، وحسنه الألباني.

وَنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا ٥٧ بِمَا نَادَاهُ ذُو النُّونِ بِنُ مَتَّى

هو يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ قيل له ذو النون لا ابتلاع النون إيّاه، والنون هو الحوت. ودعوة ذي النون هي التي قصها الله تعالى علينا في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: (٨٧)]، قال الله تعالى بعدها: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: (٨٨)]. وهذه الدعوة فيها من كمال التوحيد والتنزيه للربّ تعالى واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ. لذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ: "لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ» (١).

وَلَا زِمَ بَابَهُ قَرَعًا عَسَاهُ ٥٨ سَيَفْتَحُ بَابَهُ لَكَ إِنْ قَرَعْتَا

يقول: لازم قرع بابه سبحانه وألحَّ عليه بالدعاء، فمن أدام قرع الباب أوشك أن يفتح له ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: (٥٥)]، ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: (١٨٦)]. والله سبحانه وتعالى حيُّ كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً. وللمكودي رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِذَا عَرَضْتُ لِي فِي زَمَانِي حَاجَةً * وَقَدْ أَشْكَلْتُ فِيهَا عَلَيَّ الْمَقَاصِدُ

وَقَفْتُ بِبَابِ اللَّهِ وَقَفَةً ضَارِعٍ * وَقُلْتُ إِلَهِي إِنِّي لَكَ قَاصِدُ

وَلَسْتُ تَرَانِي وَاقِفًا عِنْدَ بَابِ مَنْ * يَقُولُ فَتَاهُ: سَيِّدِي الْيَوْمَ رَاقِدُ

وللشيخ محمد عالي ولد عدود رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَا آمَلُ النَّاسَ فِي سِرٍّ وَلَا عَلَنٍ * فِي حَالَتِي ثَرَوَةٍ مَنِي وَإِفْلَاسِ

(١) الترمذي: (٣٥٠٥)، وأحمد: (١٤٦٢)، وصححه الألباني.

ولا أرى الرزق إلا عند خالقه * ولا أضيفُ أمورَ الله للناسِ
وله أيضاً:

إني وإن كنتُ محتاجاً لمُحتاجٍ * لخير من تُرتجى مِنْ عنده الحاج
فمنه أطلبُ حاجي دون واسطةٍ * تكونُ مثلي كما أحتاجُ تحتاجُ
قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

وَأَكْثَرُ ذِكْرُهُ فِي الْأَرْضِ دُأْبَا ٥٩ لِتُذَكَّرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَا

حث رَحْمَةُ اللَّهِ على الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥٩﴾ [الأحزاب: (٤١-٤٢)].
وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: (٤٥)، الجمعة: (١٠)]. ثم ذكر
فائدة عظيمة من فوائد الذكر، وهي أن الذاكر يذكره الله: (لِتُذَكَّرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا
ذَكَرْتَا)، كما قال تعالى في الصحيحين في الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: "أنا عند ظنِّ
عَبْدِي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ
ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ"» (١).

وقد أفاض ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ في ذكر فوائد الذكر في الوابل الصيب، فذكر أن في
الذكر نحوًا من مئة فائدة، ثم ساق ثلاثًا وسبعين فائدة، كل فائدة منها خير من الدنيا وما
فيها.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ:

وَلَا تَقُلِ الصَّبَا فِيهِ مَجَالٌ ٦٠ وَفَكَّرْكُمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَّتَا

(وَلَا تَقُلِ الصَّبَا فِيهِ مَجَالٌ) وفي نسخة: (فيه امتهاَل): أي مُهلة وفسحة. (وَفَكَّرْكُمْ
صَغِيرٍ قَدْ دَفَّتَا).

(١) البخاري: (٧٤٠٥)، ومسلم: (٢٦٧٥).

يقول: لا تغتر بزمن الصبا فتقول: لا زلت صغيراً؛ فإن الموت لا يميز بين صغير وكبير، وَفَكَّرَ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَ، وكم صغير قد شهدت جنازته، وكم صغير قد صليت عليه. وأنتم ترون في كل يوم تسمع الصلاة على الأطفال، الصلاة على الأموات والأطفال، الصلاة على الميت والأطفال، أحياناً ميت واحد وعدد من الأطفال، (وَفَكَّرَ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَ).

وقد قال الشاعر:

تَزَوَّدَ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي * إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الْفَجْرِ
فَكَمْ مِنْ فَتًى أَمْسَى وَأَصْبَحَ ضَا حَكًّا * وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي
وَكَمْ مِنْ صَغَارٍ يُرْتَجَى طَوْلُ عُمْرِهِمْ * وَقَدْ أُدْخِلْتَ أَجْسَادُهُمْ ظِلْمَةَ الْقَبْرِ
وَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ * وَكَمْ مِنْ عَلِيلٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقُلْ لِي: يَا نَصِيحُ لَأَنْتَ أَوْلَى ٦١ بِنُصْحِكَ لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا
تُقَطِّعُنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْ مَا ٦٢ وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا
وَفِي صَغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا ٦٣ وَمَا تَجْرِي بِبَالِكَ حِينَ شِخْتَا
وَكُنْتَ مَعَ الصَّبَا أَهْدَى سَبِيلًا ٦٤ فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْبِكَ قَدْ نَكِسْتَا

ثم عاد الإلبيري على نفسه بالنصح فقال:

وَقُلْ لِي: يَا نَصِيحُ لَأَنْتَ أَوْلَى ٦١ بِنُصْحِكَ لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

(وقل لي): الخطاب لأبي بكر. (يا نصيحُ لَأَنْتَ أَوْلَى بِنُصْحِكَ لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا)

وفي نسخة: (لو لفعلك قد نظرتا).

وتستفيد من هذا البيت وما بعده أنه لا ينبغي للناصح أن يغفل عن نصيح نفسه وإصلاحها، بل ينبغي أن يحرص على صلاح نفسه، وإذا أمر بشيء كان أول الممثلين، وإذا نهى عن شيء كان أول المنتهين، وقد قال نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: (٨٨)]. وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: (٤٤)]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: (٢) - (٣)]، ولأبي الأسود الدُّؤَلِيّ:

يا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ * هَلَا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَا * كَيْمَا يَصَحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ
وَأَرَاكَ تُصَلِّحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا * أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَقِيمُ
لَا تَنَهُ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ * عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غِيَّهَا * فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا وَعِظْتَ وَيُقْتَدَى * بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وتستفيد منها أيضًا: أنه ليس من شرط الناصح أن يكون خلوًا من التقصير سليمًا من المعصية، بل التناصح واجب ولو بين العصاة. قال بعض العلماء: فرضٌ على الذين يتعاطون الكؤوس -أي كؤوس الخمر- أن ينهى بعضهم بعضًا. ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: (٧٩)]، فالآية تقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي؛ هم فعلوا المنكر فليؤمروا على ترك التناهي عن المنكر. وقد قيل للحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: إن فلانًا لا يعظ، ويقول أخاف أن أقول ما لا أفعل. فقال الحسن: "وأينا يفعل ما يقول! ودّ الشيطان أنه قد ظفر بهذا؛ فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر".

قال الشاعر:

إِذَا لَمْ يَعِظْ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ مُذْنِبٌ * فَمَنْ يَعِظُ الْعَاصِينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتستفيد منها أيضاً أن الناصح الصادق يؤدي ما أمره الله به من النصيحة، وهو مع ذلك لا يرى نفسه أفضل من المنصوح، ويستشعر حاجته إلى النصيحة. وللشيخ ابن سعيدي - رحمه الله تعالى - في أبيات من منظومة له في العقائد والأخلاق اسمها (منهج الحق)، قال - بعد الحث على الإكثار من ذكر الله -:

وَلَكِنَّا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا * كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلَّهِ التَّعَبُّدُ

لاحظ لم يقل:

ولكنكم من جهلكم قل ذكركم * كما قل منكم للإله التبعيد

بل قال: (ولكننا).

قال رحمه الله:

وَقُلْ لِي: يَا نَصِيحُ لَأَنْتَ أَوْلَى ٦١ بِنُصْحِكَ لَوْ بِعَقْلِكَ قَدْ نَظَرْتَا

تُقَطِّعْنِي عَلَى التَّفْرِيطِ لَوْ مَا ٦٢ وَبِالتَّفْرِيطِ دَهْرَكَ قَدْ قَطَعْتَا

يُلَقِّنُ أبا بكر أن يقول له: إذا نظرت لفعلك وجدت أنك أولى مني بالنصيحة. تُقَرِّعُنِي وتُلَوِّمُنِي على التفريط وقد قطعت دهرَكَ في التفريط في جنب الله والتقصير في حقه!

وَفِي صَغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا ٦٣ وَمَا تَجْرِي بِبَالِكَ حِينَ شِخْتَا

تخوفني من الموت في صغري ولم يخطر لك على بالك أنك للموت أقرب؛ لأنك صرت شيخاً كبيراً!

وَكُنْتَ مَعَ الصَّبَا أَهْدَى سَبِيلًا ٦٤ فَمَا لَكَ بَعْدَ شَيْئِكَ قَدْ نُكِسْتَ

يقول: ولما كنت صغيراً كنت أحسن حالاً، فلماذا نُكِسْتَ حين كبرت والشيب واعظ وزاجر عن المعاصي! نعوذ بالله من الحُور بعد الكُور. وقد كان أكثر دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقلت: "يا رسول الله، ما لأكثرِ دعائك يا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟"، قال: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ»^(١). وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(٢).

وقد أخبرنا الله تعالى أن من دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: (٨)]. وما أجمل ما جاء في ترجمة ابن أبي حاتم رحمه الله أنه قال رجل عن ابن أبي حاتم وهم في جنازته قال: "رجلٌ منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة لم ينحرف عن الطريق".

وقد أخرج الخطيب البغدادي في (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع) عن إسرائيل أنه قال: "كُثِرَ من يطلب الحديث في زمن الأعمش، فقليل له: يا أبا محمد، ما ترى ما أكثرهم! قال: لا تنظروا إلى كثرتهم؛ ثلثهم يموتون، وثلثهم يلحقون بالأعمال -يعني الوظائف-، وثلثهم من كل مئة يفلح واحد". وأخرج عن شعيب بن حرب أنه قال: "كنا نطلب الحديث أربعة آلاف، فما أنجب منا إلا أربعة". قال الخطيب رحمه الله: وهذا في وقتٍ كان العلم فيه غُضًّا طريًّا، والارتسام به محبوبًا شهياً، والدواعي إليه أكثر، والرغبة أكبر، فما عسى أن نقول في زماننا!

(١) الترمذي: (٣٥٢٢)، وأحمد: (٢٦٦٧٩)، وصححه الألباني.

(٢) مسلم: (٢٦٥٤).

وقد كنا نُعْدُّهُمْ قَلِيلًا * فقد صاروا أَقَلَّ من القليل

وهذا محمد بن إبراهيم المَرَّاكشي المعروف بشاعر الحمراء رَحِمَهُ اللهُ كان من سلالة فقهية عالة، حفظ القرآن وقرأ من القراءات وحفظ مختصر خليل وكثيراً من المتون العلمية وانقطع إلى التدريس، ثم إنه جذبته الأدب الذي كان يغالب سَوْرَة منه تعصف في أعماقه، جذبته جذبةً قويةً فترك ما كان مشغلاً به، وما زال بين أحضان الأدب إلى أن توفي -رحمه الله تعالى-. وقد ندم في آخر حياته على ما صنع -وَحَقُّ له أن يندم-، فأنشأ قصيدة تسيل حسرةً وألمًا يقول فيها:

بَرِّكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَسْخَفَ مِنْ عَقْلِي * وهل فوق وجه الأرض مِنْ أحمقٍ مثلي
وكم أدّعي عِلْمًا وحُسْنَ ثِقَافَةٍ * وما جاهلٌ إلا ومن فوقه جهلي
إلى أن قال في آخرها:

فلا عيشة تُرضى ولا كسب طاعةٍ * فلا أكثر الرحمن في خلقه مثلي
وما نقص أحد بعد زيادة، ولا ضل بعد هدى كان عليه إلا بما كسبت يده ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: (٤٦)]، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: (٥٣)]، ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الرؤم: (٤١)]. فعلى العاقل أن يحذر على قلبه من قلبه، وأن يفرع إلى ربه في حفظه.

واحذر كمائن نفسك اللاتي متى * خرجت عليك كُسِرَتْ كُسَرُ مُهَانٍ
اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك. اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.



- وَهَا أَنَا لَمْ أَخْضُ بَحْرَ الْخَطَايَا ٦٥ كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا
 وَلَمْ أَشْرَبْ حُمِيًّا أُمَّ دَفْرٍ ٦٦ وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا
 وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ ٦٧ وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْهَمَلْتَا
 وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرِ فِيهِ نَفْعٌ ٦٨ وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا
 وَقَدْ صَاحَبْتَ أَعْلَامًا كِبَارًا ٦٩ وَلَمْ أَرَكْ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا
 وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ ٧٠ وَنَهَنَهُكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا
 لِيَقْبُحَ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي ٧١ وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهَا أَنَا لَمْ أَخْضُ بَحْرَ الْخَطَايَا ٦٥ كَمَا قَدْ خُضْتَهُ حَتَّى غَرِقْتَا
 يقول: قل لي يا أبا بكر: أنا لم أنغمس في الخطايا والذنوب ولم أتماد فيها كما
 فعلت أنت، فأنت غارق فيها فأنت أولى بالنصح.

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمِيًّا أُمَّ دَفْرٍ ٦٦ وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا
 (وَلَمْ أَشْرَبْ حُمِيًّا أُمَّ دَفْرٍ): حُمِيًّا الكأس: سَوَّرْتَهَا وشدتها وأخذها برأس شاربها. (أُمَّ
 دَفْرٍ): الدفر النتن، ومنه قيل للدنيا أُمَّ دَفْرٍ، قال أبو العلاء المَعْرِي:
 دَمْتُكَ أُمَّ دَفْرٍ فَاسْمَعْنِي * وَجَازِنِي بِذَلِكَ أَوْ دَعْنِي

(وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا).

يقول: لم أفتن بشهوات الدنيا كما فتنت أنت وشربتها حتى سكرت وبلغت منك
 كل مبلغ.

وَلَمْ أَحْلِلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ ٦٧ وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَأَنْهَمَلْتَا

يُقال: انهمل دمه إذا فاض وسال، وانهملت السماء: دام مطرها مع سكون وضعف. يريد أنك أفضت في السوء وتماديت فيه. وفي نسخة: (وانتهكتا)، يُقال: انتهك الحرمه إذا تناولها بما لا يحل.

يقول: ولم أتلوث بالظلم، وأما أنت فانتهكت الحرمات وتماديت في العصيان.

وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرِ فِيهِ نَفْعٌ ٦٨ وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَ

وَقَدْ صَاحَبْتَ أَغْلَامًا كِبَارًا ٦٩ وَلَمْ أَرَكْ اقْتَدَيْتَ بِمَنْ صَحِبْتَا

يقول: وأنا لم أنشأ بعصر فيه علم ونفع ولم أدرك العلماء، أما أنت فأدركتهم وصحبتهم؛ ومع ذلك لم تنتفع بصحبتهم، ولم تتأس بهم، بل تنكبت هديهم ولم تسلك سبيلهم. وهذا من تواضع أبي إسحاق رَحِمَهُ اللهُ ومحاسبته نفسه.

وَنَادَاكَ الْكِتَابُ فَلَمْ تُجِبْهُ ٧٠ وَنَهَنَهُكَ الْمَشِيبُ فَمَا انْتَبَهْتَا

(وناداك الكتاب): أي القرآن بمواعظه، (فلم تجبه) بل أعرضت عنه كأنك غير مخاطب به. (ونهنهك المشيب): أي كفك وزجرك، وفي نسخة: (ونبهك المشيب فما انتبهتا). والشيب علامة قرب الأجل، وقد فُسِّرَ النذير في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: (٣٧)] فُسِّرَ بالشَّيْب، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعَذَّرَ اللهُ إِلَى أَمْرِي أَخْرَ أَجَلُهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»^(١)، (أعذر الله إلى امرئ): من الإعذار وهو إزالة العذر وقطع الحجة، (إلى امرئٍ أَخْرَ أَجَلُهُ): أطال حياته (حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً).

(١) البخاري: (٦٤١٩).

قال لسان الدين بن الخطيب رَحِمَهُ اللهُ:

جَزَى اللهُ عَنِّي زَاَجَرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا * جَزَى زَاَجِرًا فَاضَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ

سَلَكَتُ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّى إِذَا انْتَهَى * تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

لَيَقْبُحُ بِالْفَتْى فِعْلُ التَّصَابِي ٧١ وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

(لَيَقْبُحُ بِالْفَتْى فِعْلُ التَّصَابِي): يُقَالُ تصابي إذا تكلَّف الصِّبا. يقول: قبيح بالفتى أن

يفعل أفعال الصبيان.

(وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى): أقبح من الفتى المتصابي شيخ يفعل أفعال الفتيان، قال

الشاعر:

وإنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لَا حِلْمَ بَعْدَهُ * وإنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ

فَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيدِ مِنِّي ٧٢ وَلَوْ سَكَتَ الْمُسِيءُ لَمَّا نَطَقْنَا

وَنَفْسُكَ ذُمَّ لَا تَذُمَّمُ سِوَاهَا ٧٣ بَعِيْبٌ فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَّمْنَا

فَلَوْ بَكَتِ الدَّمَاءُ عَيْنَاكَ خَوْفًا ٧٤ لِدُنْبِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ: قَدْ أَمِنَّا

وَمَنْ لَكَ بِالْأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ ٧٥ أَمَرْتُ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلَا أَطَعْنَا

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ٧٦ لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْنَا

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي ٧٧ وَتَرْحُمُهُ وَنَفْسُكَ مَا رَحِمْنَا

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّغْنِيدِ مِنِّي ٧٢ وَلَوْ سَكَتَ الْمُسِيءُ لَمَّا نَطَقْتَ

(فَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّغْنِيدِ مِنِّي): يُلَقَّنُ أبا بكر أن يقول له: فأنت يا أبا إسحاق أحق بالتغنييد - أي باللوم والتقريع - مني، (وَلَوْ سَكَتَ الْمُسِيءُ لَمَّا نَطَقْتَ): يقول: لو سكت المسيء لسكت وما نطقت. وفي نسخة: (وَلَوْ كُنْتُ اللَّيْبُ لَمَّا نَطَقْتُ)؛ يعني: لو كنت عاقلاً لسكت وما نطقت بعيب غيرك وفيك أضعاف ما عبت به.

وَنَفْسُكَ ذَمٌّ لَا تَذُمَّمُ سِوَاهَا ٧٣ بَعِيبٍ فَهِيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَّمْتَ

يقول: ذم نفسك ولا تذم غيرها؛ فهي أحق من ذمت. وهذا حث على الاشتغال بعيوب النفس عن عيوب الناس. وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا رأيت الرجل يشتغل بعيوب غيره ويترك عيوب نفسه؛ فاعلم أنه قد مكر به". وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمْ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجَذَعَ فِي عَيْنِ نَفْسِهِ»^(١)، (يبصر أحدكم القذاة): القذاة ما يقع في العين أو الشراب من وسخ، (في عين أخيه وينسى الجذع) والجذع واحد جذوع الشجر (في عينه).

وللإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الْأَذَى * وَدِينُكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّرٌ

لِسَانَكَ لَا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ * فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنٌ

وَعَيْنُكَ إِنْ أَبَدْتَ إِلَيْكَ مَعَايَا * فَصُنْهَا وَقُلْ: يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنٌ

وَعَاشِرٌ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِعٌ مَنِ اعْتَدَى * وَفَارِقٌ وَلَكِنْ بَالِي هِيَ أَحْسَنُ

(١) ابن حبان: (٥٧٦١)، وصححه الألباني.

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: "أدركت ناسًا بالمدينة لم تكن لهم عيوب، فتكلموا في عيوب الناس فأحدث الناس لهم عيوبًا، وأدركت ناسًا بالمدينة كانت لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس فسكت الناس عن عيوبهم".

فَلَوْ بَكَتِ الدَّمَاءُ عَيْنَاكَ خَوْفًا ٧٤ لِدُذْنِكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ: قَدْ أَمِنْتَ

يقول: لو أنك بكيت على ذنوبك الدم مكان الدمع لم أضمن لك السلامة، ولم أقل لك إنك أمنت.

يشهد لهذا المعنى الذي ذكره رَحِمَهُ اللهُ حديث الشفاعة في الصحيحين أن الله تعالى يَجْمَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرَ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيَنْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُ نَحْوَ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ نَحْوَ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ نَحْوَ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ نَحْوَ ذَلِكَ^(١).

إذا كان كل واحد من هؤلاء الصفوة يقول: "إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري"، إذا كان كل واحد منهم يقول مثل هذا، يقولون هذا وهم من هم، فما عسى أن يقول غيرهم!

(١) البخاري: (٣٣٤٠)، ومسلم: (١٩٤).

وَمَنْ لَكَ بِالْأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ ٧٥ أَمَرْتَ فَمَا ائْتَمَرْتَ وَلَا أَطَعْتَ

كيف تأمن وقد أمرت فلم تأتمر، ونهيت فلم تنته! والمؤمن الصادق يجمع بين الإحسان في العمل والخوف ألا يقبل عمله، كما قال الحسن البصري: "إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا".

وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية فقالت: "أَهُمُّ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟"، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيَصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾» [٦١] (١).

وفي الحديث القدسي: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَعَزَّيْ وَجَلَالِي لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنِينَ وَلَا خَوْفِينَ، إِنَّ هُوَ أَمْنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفُّهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي"» (٢).

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى ٧٦ لَجْهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنَتْ

يقول: إنك مثقل من الذنوب، ومع ذلك لا تخشى لجهلك أن يخف ميزانك غداً! وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

(١) الترمذي: (٣١٧٥)، وصححه الألباني.

(٢) الجامع الصغير برقم (٧٧٨١)، وحسنه الألباني في الصحيحة: (٧٤٢).

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى الْمَعَاصِي ٧٧ وَتَرْحُمُهُ وَنَفْسَكَ مَا رَجَعْتَ

تشفق على المُصِرِّ على المعاصي وترحمه، والأولى بك أن تشفق على نفسك وترحمها بإصلاح عيوبها وتركيتها.

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوًا ٧٨ لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَ

وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ ٧٩ وَنَاقَشَكَ الْحِسَابَ إِذَا هَلَكْتَ

وَلَمْ يَظْلِمَكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ ٨٠ عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَ

وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْفَضْلِ فَرْدًا ٨١ وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى

لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا ٨٢ عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَ

تَفَرُّمِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ ٨٣ فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوًا ٧٨ لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَ

(رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى): القهقري الرجوع إلى الخلف من غير أن يُعيد وجهه إلى جهة مشيه. (وَخَبَطْتَ عَشْوًا): الخبط الضرب، يُقال خبط البعير الأرض إذا ضربها بيده، العشواء الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تحبط بيديها كل شيء، يُقال: فلان خبط خبط عشواء إذا خبط أمره على غير بصيرة. (لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لَمَا رَجَعْتَ).

يقول: رجعت للوراء وتصرفت على غير بينة، ولو أنك وصلت إلى الإيمان والمقامات العالية ما انتكست، ولكنك ما وصلت.

ويشهد لهذا المعنى ما قاله هرقل عظيم الروم لأبي سفيان وقد سأله: هل يرتد أحد منهم -أي من أتباع نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- هل يرتد أحد منهم عن

دينه بعد أن يدخله سخطه له؟ فقال: لا. فقال له هرقل بعد ذلك: وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطه له؟ فزعمت أن لا، قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب^(١)، أي: حين تخالط حلاوته ونوره والفرح والاستبشار به القلوب.

وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ ٧٩ وَنَاقَشَكَ الْحِسَابَ إِذَا هَلَكْتَ

لو أنك لقيت الله بلا ذنب ثم نُوقِشت الحساب هلكت، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذْبٌ»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: (٨)]؟"، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ ذَلِكَ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذْبٌ»^(٢).

وَلَمْ يَظْلِمَكَ فِي عَمَلٍ وَلَكِنْ ٨٠ عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَ

(وَلَمْ يَظْلِمَكَ فِي عَمَلٍ): ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: (٤٦)] (وَلَكِنْ عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَ): ولكن السبب في هلاكك لو نُوقِشت الحساب أنك حُمِلت أمانة عظيمة عسير عليك أن تقوم بها ما لم يعنك الله عليها.

وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْفَصْلِ فَرْدًا ٨١ وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى

لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا ٨٢ عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَ

تَفَرُّ مِنْ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ ٨٣ فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَ

(وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْفَصْلِ فَرْدًا) ﴿وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: (٩٥)]، (وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى): أي متفاوتة ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: (١٦٣)]،

(١) البخاري: (٧)، ومسلم: (١٧٧٣).

(٢) البخاري: (١٠٣)، ومسلم: (٢٨٧٦).

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: (١٣٢)، الأحقاف: (١٩)]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَائِبَ مِنَ الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ؛ لِتَفَاضِلِ مَا بَيْنَهُمْ»^(١)؛ أي لبعد منازل أهل العرف وعلو درجاتهم عن باقي أهل الجنة. وقد قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عَرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عَرْفٌ مَّبْنِيٌّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: (٢٠)].
يقول:

وَلَوْ قَدْ جِئْتَ يَوْمَ الْفَضْلِ فَرَدًّا ٨١ وَأَبْصَرْتَ الْمَنَازِلَ فِيهِ شَتَّى

لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا ٨٢ عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَ

(لَأَعْظَمْتَ النَّدَامَةَ فِيهِ لَهْفًا): أي حزناً وتحسراً (عَلَى مَا فِي حَيَاتِكَ قَدْ أَضَعْتَ)، هناك تعظم الندامة حيث لا ينفع الندم.

تَفَرُّ مِنَ الْهَجِيرِ وَتَتَّقِيهِ ٨٣ فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَ

(تَفَرُّ مِنَ الْهَجِيرِ): الهجير: نصف النهار عند اشتداد الحر، (فَهَلَّا مِنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَ) أو (عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَ) نسختان.

يقول: تفر من الشمس في شدة الحر وتلجأ إلى الظل، ونار جهنم أشد حرًا؛ فهلا فررت منها بطاعة الله، قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: (٨١)]. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: (٦)].

والنجاة من النار والفرار منها يكون بالعمل بالطاعات وترك المعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ

(١) البخاري: (٣٢٥٦)، ومسلم: (٢٨٣١).

مُهَيِّنٌ ﴿١٤﴾ [النساء: (١٣-١٤)]. ومن تلك الأعمال الصالحة التي تُنَجِّي من النار: الصدقة والكلمة طيبة، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» ^(١). ومنها حُسن الخلق ولين الجانب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ؟ - أَوْ قَالَ: بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ - عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ» ^(٢).

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا ٨٤ وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا
فَلَا تُكَذِّبُ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَدُّ ٨٥ وَلَيْسَ كَمَا حَسِبْتَ وَلَا ظَنَّنَا
أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقْلَ عَيْي ٨٦ وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا
فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ٨٧ وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتَا
وَمَهْمَا عِثْنِي فَلَفَرَطٍ عِلْمِي ٨٨ بِيَا طِئْتِي كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا
قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا ٨٤ وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَا
يقول: أنت لا تطيق أهون عذابها وأقل حرارتها، في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوَضَّعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ» ^(٣)، هذا أهون أهل النار عذابًا، وهو أبو طالب عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ورد في رواية أخرى ^(٤).

(١) البخاري: (١٣٤٧)، ومسلم: (١٠١٦).

(٢) الترمذي: (٢٤٨٨)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٩٣٨).

(٣) البخاري: (٦٥٦١)، ومسلم: (٢١٣).

(٤) مسلم: (٢١٢).

(وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذُبْتَ): في الصحيحين قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»، قالوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللَّهِ -أي نار الدنيا كافية في تعذيب أهل النار-، قَالَ: «فَإِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»^(١).

فَلَا تُكَذِّبْ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَدُّ ٨٥ وَلَيْسَ كَمَا حَسِبْتَ وَلَا ظَنَنْتَا

(فَلَا تُكَذِّبْ) وفي رواية: (وَلَا تُنْكِرْ).

يقول: خذ الأمر بجد ولا تُخدع ولا تنكر ما أقوله لك؛ فليس الأمر بهين كما تظن، بل الأمر جد. ولابن المقرئ في تائيته في الوعظ والتذكير، قال:

فِيَا عَامِلًا لِلنَّارِ جِسْمُكَ لَيْنٌ * فَجَرَّبُهُ تَمَرِينًا بَحَرَّ الظَّهِيرَةِ
وَدَرَجُهُ فِي لَسَعِ الزَّئَابِرِ تَجْتَرِي * عَلَى لَسَعِ حَيَاتٍ هُنَاكَ عَظِيمَةٍ
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَقْوَى فَوَيْلَكَ مَا الَّذِي * دَعَاكَ إِلَى إِسْخَاطِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ
تُبَارِزُهُ بِالْمُنْكَرَاتِ عَشِيَّةً * وَتُصْبِحُ فِي أَثْوَابِ نُسْكَ وَعِقَّةِ

أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقْلَ عَيْبِي ٨٦ وَأَكْثَرَهُ وَمُعْظَمَهُ سَتَرْتَا

يقول لأبي بكر: هذا الذي ذكرته وكشفته هو أقل عيبي، وأكثر معايبي لم تكشفها ولم تتحدث عنها.

فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي ٨٧ وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتََا

(فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ مِنَ الْمَخَازِي) والمعاييب (وَضَاعِفْهَا فَإِنَّكَ قَدْ صَدَقْتََا)؛ لأن معايبي كثيرة، فأنت صادق في جميع ما تقول.

(١) البخاري: (٣٢٦٥)، ومسلم: (٢٨٤٣).

وهذا من تواضع الناظم رَحْمَةُ اللَّهِ وهضمه نفسه. وهذه حال الصالحين؛ دخل عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حائطاً، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسمعتة وهو يقول وبينه جدار وهو في جوف الحائط: "عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، بخٍ بخٍ! والله يا ابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبتك". ومن هذا قول القحطاني في نونيته:

والله لو علموا قبيح سريري * لأبى السلام عليّ من يلقياني

ولأعرضوا عني وملّوا صُحْبتي * ولبؤت بعد كرامة بهوان

لكن سترت معايي ومثالي * وحلّمت عن سَقْطِي وعن طُغْيَانِي

ولم يقف الناظم عند هذا بل قال:

وَمَهْمَا عِبْتَنِي فَلَفَرَطِ عِلْمِي ٨٨ بِبَاطِنَتِي كَأَنَّكَ قَدْ مَدَحْتَا

يقول: مهما قلت فيّ من العيوب فكأنك قد مدحتني؛ لما أعلمه من نفسي من العيوب التي لم تذكرها.



- فَلَا تَرْضُ الْمَعَايِبَ فَهِيَ عَارٌ ٨٩ عَظِيمٌ يُورِثُ الْإِنْسَانَ مَقْتًا
وَتَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الشُّرِّيَا ٩٠ وَتُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَ
كَمَا الطَّاعَاتُ تُنْعِلُكَ الدَّرَارِي ٩١ وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَ
وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلًا ٩٢ فَتُلْفَى الْبَرَّ فِيهَا حَيْثُ كُنْتَ
وَتَمْشِي فِي مَنَاكِهَا كَرِيمًا ٩٣ وَتَجْنِي الْحَمْدَ مِمَّا قَدْ غَرَسْتَ
وَأَنْتَ الْآنَ لَمْ تُعْرِفْ بَعَابٍ ٩٤ وَلَا دَنْسَتْ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَ
وَلَا سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ ٩٥ وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَيْتَا

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَلَا تَرْضُ الْمَعَايِبَ فَهِيَ عَارٌ ٨٩ عَظِيمٌ يُورِثُ الْإِنْسَانَ مَقْتًا

يُحَذِّرُ أَبُو إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ التَّلْبِسِ بِالْمَعَايِبِ وَالذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ التَّلْبِسَ بِهَا عَارٌ عَظِيمٌ يُورِثُ الْعَاصِيَ مَقْتَ اللَّهِ وَسَخَطَهُ وَكَرَاهِيَةَ النَّاسِ لَهُ، وَهَذَا مِنْ شُؤْمِ الْمَعَاصِي. وَلَيْسَ هَذَا فَحَسَبَ، بَلْ كَمَا قَالَ:

وَتَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الشُّرِّيَا ٩٠ وَتُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَ

(وَتَهْوِي بِالْوَجِيهِ مِنَ الشُّرِّيَا): الْوَجِيهِ: مَنْ لَهُ جَاهٌ وَقَدْرٌ (مِنْ الثَّرِيَا): الثُّرْيَا: مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ. وَالْمُرَادُ أَنَّ الْمَعَايِبَ تَهْوِي بِصَاحِبِ الْجَاهِ مِنْ عُلُوِّهِ وَبِهَائِهِ. (وَتُبْدِلُهُ مَكَانَ الْفَوْقِ تَحْتَ): وَهَذَا مِنْ شُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ.

كَمَا الطَّاعَاتُ تُنْعِلُكَ الدَّرَارِي ٩١ وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَ

(كَمَا الطَّاعَاتُ تُنْعِلُكَ الدَّرَارِي): يقول العكس بالعكس؛ فالطاعات ترفع منزلتك، وتلبسك ثوب العز والجلال حتى تكون الدَّرَارِي، وهي: الكواكب المضيئة كالنعل لك، من رفعة منزلتك: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: (١١)].

(وَتَجْعَلُكَ الْقَرِيبَ وَإِنْ بَعُدْتَ): تجعلك قريباً من الله، قريباً من قلوب الخلق، وإن كنت بعيداً عن وجوه المعالي في مالٍ أو نسبٍ أو جاهٍ؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مریم: (٩٦)]؛ سيلقي عليهم محبة منه سبحانه وتعالى، ويجعل لهم المحبة في قلوب الخلق، والود خالص الحب.

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً ٩٢ فَتُلْقَى الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ كُنْتَ

(وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً): تجعل لك لسان صدق؛ أي: ثناءً حسناً، وتنشر عنك حسن الأحدوثة. (فَتُلْقَى الْبِرَّ فِيهَا حَيْثُ كُنْتَ): فتلقى الإكرام والإحسان حيثما توجهت.

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا كَرِيماً ٩٣ وَتَجْنِي الْحَمْدَ مِمَّا قَدْ غَرَسْتَ

(وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا كَرِيماً): وتمشي في جوانب الأرض وأطرافها كريماً محمود السيرة. (وَتَجْنِي الْحَمْدَ مِمَّا قَدْ غَرَسْتَ).

هذا كله من ثمرات الطاعة وآثارها، ولَمَّا ينتظر أهل الطاعة من الثواب في الآخرة أكبر من هذا وأعظم.

وَأَنْتَ الْآنَ لَمْ تُعْرِفْ بِعَابٍ ٩٤ وَلَا دَنَسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَ

(وَأَنْتَ) يا أبا بكر (الآن لَمْ تُعْرِفْ بِعَابٍ) أي: بعب، (وَلَا دَنَسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَ) منذ نشأت.

يقول: إنك إلى الآن لم تُعْرِفْ بعب تشتهر به، ولم تدنس ثوبك بالمعاصي والقبائح منذ نشأت.

وَلَا سَابَقْتَ فِي مِيدَانِ زُورٍ ٩٥ وَلَا أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلَا خَبَيْتَا

الإيضاع: ضرب من السير السريع. ومنه قوله تعالى عن المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: (٤٧)]؛ أي: لأسرعوا في صفوفكم بالفتنة. (ولا خَبَيْتَا): كذلك سير سريع.

يقول: إنك لم تشهد الزور، ولم تسر في ميادين المنكرات، ولم تسرع في طرقها. وقد قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعُ

أَحْبُبُ فِيهَا وَأَضَعُ

أَقْوَدُ وَطَفَاءَ الرَّمْعِ

كَأَنَّهَا شَاءَ صَدَعُ

الشاهد: (أَحْبُبُ فِيهَا وَأَضَعُ)، فالْحَبَبُ ضرب من السير السريع، وكذلك الإيضاع. وهذا من حسن نصحه رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: (١٢٥)]؛ فإنه ضَمَّنَ نصيحته الثناء على المنصوح، وإشعاره بأنه عنده خير كثير، وأنه لا يزال على طريق السلامة. وهذا من الحكمة في النصيحة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً. والمنصوح إذا أسمعته مثل هذا هيأت قلبه لقبول نصحك.

فَإِنْ لَمْ تَنَأْ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ ٩٦ وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَا

وَدَنَسَ مَا نَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى ٩٧ كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهَّرْتَا

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ ٩٨ وَكَيْفَ لَكَ الْفَكَاءُ وَقَدْ أُسِرْتَا

وَخَفَ أَبْنَاءَ جَنْسِكَ وَآخَشَ مِنْهُمْ ٩٩ كَمَا تَخْشَى الضَّرَاعِمَ وَالسَّبَبَتَى

وَخَالِطُهُمْ وَزَايِلُهُمْ حَذَارًا ١٠٠ وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَا
وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ سَلَامًا ١٠١ لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

قال رَحِمَهُ اللهُ:

فَإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ ٩٦ وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَ

(فَإِنْ لَمْ تَنْأَ): يعني: إن لم تتبعد عن ميدان الزور وعن العصيان (نَشِبْتَ فِيهِ):
عَلِقْتَ فِيهِ، يُقَالُ: نَشِبَ الشَّيْءُ فِي الشَّيْءِ: إِذَا عَلِقَ فِيهِ.

(وَمَنْ لَكَ بِالْخَلَاصِ إِذَا نَشِبْتَ): إذا تورطت بالمعاصي وعَلِقْتَ بِهَا، فمن يضمن لك
أن تنجو إذا نَشِبْتَ فِيهَا؛ فَإِنَّ الْمَعَاصِي يَجْرُ بِعُضْهَا بَعْضًا، وَيُولَدُ بِعُضْهَا بَعْضًا. وإذا
تكاثرت المعاصي طبعت على قلب صاحبها، فكان من الغافلين.

وَدَنْسَ مَا نَظَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى ٩٧ كَأَنَّكَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا طَهَّرْتَا

يقول: إذا لم تنأَ عن ميدان الزور ستَنَشِبُ فِيهِ وَتُدَنْسُ بِالْمَعَاصِي حَتَّى كَأَنَّكَ لَمْ
تَكُنْ طَاهِرًا قَبْلَ ذَلِكَ. ولبعضهم:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا * وَكَبِيرَهَا؛ ذَاكَ التُّقَى

وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ * ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً * إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ ٩٨ وَكَيْفَ لَكَ الْفَكَاكُ وَقَدْ أُسِرْتَ

يقول: وإن لم تنأَ عن ميدان الزور وعن العصيان؛ فَإِنَّكَ سَتَصِيرُ أَسِيرَ ذَنْبِكَ
وَسَتَحِيطُ بِكَ خَطِيئَتُكَ. والإنسان قد يكون معافً فيتسامح في شيء من المعاصي فتزل به
قدمه، فيتورط في وحل المعصية وسجن الشهوة وأسر الشيطان. ومن ألقى بنفسه في البحر
فلا يطالب نفسه بألا تبتل ثيابه!

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له * إياك إياك أن تبتل بالماء!
فالسلامة ألا تُعرِّض نفسك لما لا تقوى عليه، وأن تقطع كل سبب يوصلك إلى
المعصية.

إن السلامة من سلمى وجارتها * أن لا تمر على حال بواديها
ولبعضهم:

كم من هوى أورث ذلًا ما محي * نكس رأسًا ورمى بالترح
كم من هوى قبَّح ذكرًا في الوري * أوقد من نار الهوى ما لا يرى
كم عاقل أرخى الزمام للهوى * حتى إذا انتهى به الدرب هوى
كان ابتداء أمره مجونًا * فما ارعوى حتى غدا جنونًا
قال:

وَحَفْ أَبْنَاءَ جَنَسِكَ وَأَخْشَ مِنْهُمْ ٩٩ كَمَا تَخْشَى الضَّرَاغِمَ وَالسَّبْتَى

(الضراغم): جمع ضِرغام للأسد الضاري الشديد المقدام. (وَالسَّبْتَى): النمر.

وَحَالِطُهُمْ وَزَايِلُهُمْ حَذَارًا ١٠٠ وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَ

يقول: إذا اضطرت إلى مخالطة الناس فخالطهم وزايلهم بحذر. وهذا معنى قول ابن
مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "خالطوا الناس وزايلوهم"؛ أي: خالطوهم في الأفعال الصالحة، وزايلوهم:
أي فارقوهم في الأفعال المذمومة. زايلهم معناه: فارقهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَرَّيَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾
[يونس: (٢٨)]؛ أي: فرَّقنا بينهم.

(وَكُنْ كَالسَّامِرِيِّ إِذَا لُمِسْتَ): يقول: كن في المخالطة كالسامري. السامري لما دعا

بني إسرائيل إلى عبادة العجل: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم
وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: (٨٨)]؛ عاقبه الله بأن يكون منبوذًا، يقول لكل أحد: لا أمسُ

ولا أُمسّ، يعني: لا أَمْسُكْ ولا تَمَسْنِي. رُوي أنه كان إذا مسه أحد أصابت الحمى كليهما، فصار هو يبتعد عن الناس، وصار الناس يبتعدون عنه.

فالذي ينبغي أن يخالط الإنسان غيره في الخير، وأن يزايلهم في الشر. وإذا خالطهم فإنه يصبر على أذاهم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(١).

لذا ينبغي انتقاء الأصحاب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المرءُ على دين خليله؛ فليُنْظَرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(٢). وقال مالك بن دينار للمغيرة بن حبيب: "يا مغيرة، انظر كل جليس وصاحب لا تستفيد في دينك منه خيراً فانيذ عنك صحبتته". وقد قال سفيان الثوري: "ليس شيء أبلغ في فساد رجل وصلاحه من صاحب". ويشهد لهذا المعنى قول امرئ قيس في معلقته:

كَأَنَّ أَبَانَا فِي أَفَانِينَ وَدَقِهِ * كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ

الشاهد منه على عدم صحبة الساقط أن (مُزْمَلٍ) صفة لقوله (كبير أناس)، لكن لما جاورت مجروراً وهو قوله (بجَادٍ) جُرَّت. لذلك لن تجد طالب علم كان مرفوعاً فجُرَّ إلا والغالب أن السبب صحبة.

ومن لطيف ما يتعلق ببيت امرئ القيس قول بعضهم:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا * مُضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَأَيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ نَاقِصٍ * فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عِلَاكَ وَتُصْغُرَا
فَرَفُعُ (أَبُو مَنْ) ثُمَّ خَفُضُ (مُزْمَلٍ) * يُبَيِّنُ قَوْلِي مُغْرِيًا وَمُحَذِّرًا

(١) الترمذي: (٢٥٠٧)، وابن ماجه: (٤٠٣٢)، وصححه الألباني في الصحيحة: (٩٣٩).

(٢) أبو داود: (٤٨٣٣)، والترمذي: (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة: (٩٢٧).

(أبو من): (أبو) لَمَّا أُضِيفَ إِلَى مَا لَهُ صَدْرُ الْكَلَامِ وَهُوَ (من) الاستفهامية صار له صدر الكلام، هذا قوله:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا * مُضَافًا لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
(مُزْمَلٍ) لما جاور مجرورًا جر، مع أنه وصف لمرفوع وهو (كَبِيرُ أَنْاسٍ)، فكان حقه أن يرفع؛ لكنه صاحب ساقطًا فسقط. هذا قوله:

وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ نَاقِصٍ * فَتَنْحَطَّ قَدْرًا مِنْ عُلَاكَ وَتُصْغُرَا
وقال آخر:

إِذَا مَا اللَّيَالِي جَاوَرَتْكَ بِسَاقِطٍ * وَقَدْرُكَ مَرْفُوعٌ فَعْنَهُ تَرَحَّلِ
ألم تر ما لاقاه في جنب جاره * (كبير أناس في بجادٍ مُزْمَلٍ)
وقد قال أبو الفتح البُستي في عنوان الحِكم:

مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ وَفِي * قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صِلٌ وَثُعْبَانُ
(من استنাম إلى الأشرار): أي سكن إليهم وصاحبهم، (نام وفي قميصه منهم صِلٌ): الصِل: الحية التي يقولون إنها لا ينفع فيها دواء لشدة سمها القاتل، والثعبان معروف نوع من الحيات الطوال القاتلة، وما ظنك بمن نام وفي قميصه صِلٌ وثعبان! فالأشرار لا يُصحبون؛ لأنهم يسحبون.

أَنْتَ فِي النَّاسِ تُقَاسُ * بِالَّذِي اخْتَرْتَ خَلِيلَا

فَاصْحَبِ الْأَخْيَارَ تَعْلُو * وَتَنْلِ ذِكْرًا جَمِيلَا

صُحْبَةُ الْخَامِلِ تَكْسُو * مِنْ يُوَاخِيهِ خَمُولَا

(وخالفهم وزايلهم حذارًا): يُروى في شمائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ويحذر الناس ويحترس

منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره منهم ولا خلقه" (١).

(١) الشمائل للترمذي: (٣٣٧).

وَأِنْ جَهَلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ سَلَامًا ١٠١ لَعَلَّكَ سَوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا

يعني إذا جهل عليك جاهل فقل قولاً تسلم به من الإثم، ولا تقابله بجهله، وهذا معنى قوله تعالى عن عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: (٦٣)]؛ يعني قالوا قولاً يسلمون به من الإثم ومن مقابلة الجاهل بجهله. وللإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ * فَأَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيبًا

يَزِيدُ سَفَاهَةً فَأَزِيدُ حِلْمًا * كَعُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طَبِيبًا

وله أيضًا:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلَا تَجِبْهُ * فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَإِنْ كَلِمَتُهُ فَرَّجَتْ عَنْهُ * وَإِنْ خَلِيلَتُهُ كَمَدًا يَمُوتُ

وقال صلاح الدين الصفدي في لاميته التي مطلعها:

الجدُّ في الجدِّ والحرمانُ في الكسلِ * فأنصَبْ تُصَبِّتُ عَنْ قَرِيبٍ غَايَةَ الْأَمَلِ

قال:

واستشعرِ الحِلْمَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَلَا * تُسْرِعْ بِبَادِرَةِ يَوْمًا إِلَى رَجُلٍ

وَأِنْ بُلِيتَ بِشَخْصٍ لَا خَلَاقَ لَهُ * فَكُنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ يَقُلْ

وقد أخبرنا الله تعالى عن أهل الجنة أنهم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا﴾ [النبا: (٣٥)]

[النبا: (٣٥)]؛ فالجنة لا تسمع فيها إلا أطيب الكلام.

فمن أراد النعيم في الدنيا فليترك اللغو ومجالسة أهل الجهل. والعمر أقصر من أن

يضيع في اللغو والقييل والقال.

وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي زَمَانٍ ١٠٢ يَنَالُ الْعُصْمَ إِلَّا إِنْ عُصِمْتَ
 وَلَا تَلْبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ ١٠٣ يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلَّا إِنْ كُيِّمْتَ
 وَغَرَّبَ فَالْغَرِيبُ لَهُ نَفَاقٌ ١٠٤ وَشَرَّقَ إِنْ بَرِيقَكَ قَدْ شَرِقْتَ
 فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ١٠٥ لَأَنْتَ بِهَا الْأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَ
 وَلَوْ فَوْقَ الْأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا ١٠٦ سُمُومًا وَافْتِخَارًا كُنْتَ أَتَا
 وَإِنْ فَرَّقْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا ١٠٧ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَقَدْ سَلِمْتَ
 وَإِنْ كَرَّمْتَهَا وَنَظَرْتَ فِيهَا ١٠٨ بِإِجْلَالٍ فَتَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا
 قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي زَمَانٍ ١٠٢ يَنَالُ الْعُصْمَ إِلَّا إِنْ عُصِمْتَ

يقول: من يضمن لك السلامة، وكيف تنال العصمة من الشر في زمان ينال الشر فيه العُصْم؛ وهي الوعول في رؤوس الجبال! العُصْم: جمع أعصم، والأعصم من الظباء والوعول: ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض، وسائره أسود أو أحمر، وهي عصماء. يعني من يضمن لك السلامة في هذا الزمان الذي الشر فيه وصل إلى العُصْم؛ إلى الوعول في رؤوس الجبال! إذا كان الوعل في رأس الجبل ناله شر الناس، فكيف تطمع أنت في السلامة من شرهم وأنت تخالطهم! قال ابن الوردي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَإِنْ * حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ

والأنبياء رغم كريم صفاتهم وكمال أخلاقهم؛ لم يسلموا من العداوة والإيذاء: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: (٣١)]. قال ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله): "وقد روي أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: يا رب، اقطع عني ألسن بني إسرائيل. فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، لم أقطعها عن نفسي، فكيف أقطعها عنك!".

وَضُبِطَ (العَصْم) في البيت بفتح فسكون (ينال العَصْم)، والعَصْم مصدر الفعل عَصَمَ، يُقال: عَصَمَ يَعْصِمُ عَصْمًا. وعلى هذا يكون المعنى: لا ينال العَصْمَة إلا من عَصَمَهُ الله. والضبط الأول أجزل وأفخم.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَا تَلَبَّثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ ١٠٣ يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلَّا إِنْ كُيِّلَا

(وَلَا تَلَبَّثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ): الضيَم: الظلم والإذلال. (يُمِيتُ الْقَلْبَ إِلَّا إِنْ كُيِّلَا): إلا إن قيِّدت وحُبست.

يقول: لا تمكث في موضع فيه ظلم وهوان؛ فإن الكريم يأبى أن يلحقه الضيم. قال الشاعر:

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ * إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ

هذا على الحَسَفِ مربوطٌ بِرُمَّتِهِ * وَذَا يُشَجُّ فَمَا يَرِثِي لَهُ أَحَدُ

(هذا على الحَسَفِ): أي الوتد (مربوطٌ بِرُمَّتِهِ): أي بحبله، مربوط بجبل الخيمة فيضرب، (وذَا يُشَجُّ): أي العير - الحمار - (فَمَا يَرِثِي لَهُ أَحَدُ).

قال رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَرَّبْ فَالْغَرِيبُ لَهُ نَفَاقٌ ١٠٤ وَشَرَّقْ إِنْ بَرِيقَكَ قَدْ شَرَفْتَا

(وَعَرَّبْ): أي إن كنت في حي فيه ضيم، فلا تمكث فيه، بل عَرَّبْ؛ (فَالْغَرِيبُ لَهُ

نَفَاقٌ): له نفاق: له رواج، يُقال: نَفَقَتِ البضاعة إذا راجت وصار الناس يرغبون فيها. وفي

نسخة: (وَعَرَّبْ فَالتَّغَرُّبُ فِيهِ خَيْرٌ). (وَشَرَّقْ إِنْ بَرِيقَكَ قَدْ شَرَفْتَا)، عَرَّبْ: اتجه جهة

الغرب، شَرَّقْ: اتجه جهة الشرق.

يقول: لا تبق في موضع تظلم فيه ويموت فيه قلبك، بل شَرَّقْ أو عَرَّبْ، ابحث عن

مكان تُعان فيه على الخير.

ولأبي الفتح البُستي في هذا المعنى في (عنوان الحكم):

إِذَا نَبَا بِكَرِيمٍ مَوْطِنٌ فَلَهُ * وراءَهُ فِي بَسِيطِ الْأَرْضِ أَوْطَانُ
ولابن الوردي -عليه رحمة الله-:

حُبَّكَ الْأَوْطَانُ عَجْزُ ظَاهِرٍ * فَاغْتَرَبْتُ تَلَقَّ عَنْ الْأَهْلِ بَدَلُ
وللطُّغْرَائِي هذا المعنى فِي لَامِيَةِ الْعَجَم:

إِنَّ الْعَلَا حَدَّثَنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ * فِي مَا تُحَدِّثُ أَنَّ الْعَزَّ فِي النُّقْلِ
وَفِي حَدِيثِ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ قَالَ لَهُ الْعَالَمُ: «انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا،
فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ»^(١).

فَلَيْسَ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا خُمُولًا ١٠٥ لَأَنْتَ بِهَا الْأَمِيرُ إِذَا زَهَدْتَ

يقول: ليس الزهد في الكسل والبطالة والانقطاع عن المصالح، بل الزاهد حقيقة من جعل الدار الآخرة همه، فترك ما لا ينفعه في الآخرة، ولو ملكَت الأموال، لكنها تكون في يدك، لا تكون في قلبك. وهذا عمر بن عبدالعزيز مَضْرِبُ المَثَلِ في الزهد وهو أمير المؤمنين. وقد سُئِلَ الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار، هل يكون زاهداً؟ فقال: "نعم، على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت". فالشأن ألا تكون الدنيا في قلبك.

وَلَوْ فَوْقَ الْأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا ١٠٦ سُمُومًا وَافْتِخَارًا كُنْتَ أَتَا

فالزاهد في الدنيا يجعل الله له المكانة العالية والمنزلة الرفيعة والمحبة في القلوب؛ حتى كأنه الأمير (لأنَّتَ بها الأمير إذا زهدت)، بل منزلته أعلى عند العارفين:

وَلَوْ فَوْقَ الْأَمِيرِ تَكُونُ فِيهَا ١٠٦ سُمُومًا وَافْتِخَارًا كُنْتَ أَتَا

(١) البخاري: (٣٤٧٠)، ومسلم: (٢٧٦٦).

وَأِنْ فَرَّقْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا ١٠٧ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَقَدْ سَلِمْتَ

(وَأِنْ فَرَّقْتَهَا): أي فرقت الدنيا ولم تجمعها. وفي نسخة:

وَأِنْ فَارَقْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا ١٠٧ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَقَدْ سَلِمْتَ

يقول: السلامة في أن تخرج من الدنيا كفافاً؛ لا تلحقك تبعة في الآخرة. فإذا فارقت الدنيا بهذا الزهد وخرجت منها إلى دار السلام، فقد سلمت؛ لأنك تركت ما لا ينفعك في آخرتك.

وَأِنْ كَرَّمْتَهَا وَنَظَرْتَ فِيهَا ١٠٨ بِإِجْلَالٍ فَنَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا

(وَأِنْ كَرَّمْتَهَا)، وفي نسخة: (وَأِنْ أَكْرَمْتَهَا): أي: إذا أكرمت الدنيا وجعلتها أكبر همك ومبلغ علمك، (وَنَظَرْتَ فِيهَا بِإِجْلَالٍ)؛ (فَنَفْسَكَ قَدْ أَهَنْتَا): فقد أهنت نفسك. وقد كان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»^(١).



(١) الترمذي: (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (١٢٦٨).

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَاُمْتَثِلْهَا ١٠٩ حَيَاتِكَ فَهِيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَ
وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ ١١٠ لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَ
فَلَا تَأْخُذْ بِتَقْصِيرِي وَسَهْوِي ١١١ وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشِدْتَ
وَقَدْ أَرَدْتُهَا سِتًّا حَسَنًا ١١٢ وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِئَةٍ وَسِتًّا

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَاُمْتَثِلْهَا ١٠٩ حَيَاتِكَ فَهِيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَ

(جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَاُمْتَثِلْهَا حَيَاتِكَ): لا تمتثلها اليوم وتتركها غداً، بل امتثلها في حياتك كلها. (فَاُمْتَثِلْهَا حَيَاتِكَ، فَهِيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَ)؛ لأنها تفضي بك إلى خير الدنيا والآخرة.

وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ ١١٠ لِأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَ

يعتذر رَحِمَهُ اللَّهُ من تطويل النصيحة، ويبين سبب إطالة النصح وهو أن المنصوح قد أطال إقامته على البطالة والتقصير، فناسب أن يُطال له النصح والتذكير. والأصل في النصيحة أن تكون موجزة لئلا يمل المنصوح. لذلك لم يزل أهل العلم يكرهون من المواعظ ما يُنسي بعضه بعضاً لطوله، ويستحبون من ذلك ما وقف عليه السامع الموعوظ فعمل به، وذلك لا يكون إلا مع القلة. لذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هي كلمات يسيرات" ^(١)، و"كان يحدث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه" ^(٢)، وجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِصَرَ خطبة الرجل مئنة من فقهه ^(٣)؛ أي علامة على فقهه.

(١) أبو داود: (١١٠٧)، وحسنه الألباني.

(٢) البخاري: (٣٥٦٧)، ومسلم: (٢٤٩٣).

(٣) مسلم: (٨٦٩).

لذا اعتذر الناظم للمنصوح على إطالته، وبين سبب ذلك. وهذا الاعتذار من دواعي انشراح صدر المنصوح، ومحبه للناصح، وقبوله لنصحه. وهو وإن طَوَّل العتاب والنصح؛ إلا أنها نصيحة نافعة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فَلَا تَأْخُذْ بِتَقْصِيرِي وَسَهْوِي ١١١ وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشَدْتَ

(**فَلَا تَأْخُذْ بِتَقْصِيرِي وَسَهْوِي**)؛ لأنه لن يضرك، وهذا شأن الصالحين في هضم أنفسهم والاعتراف بالتقصير والسهو، (**وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشَدْتَ**).

لا تَأْخُذْ بِتَقْصِيرِي وَسَهْوِي؛ لأنه لن يضرك وخذ بوصيتي؛ لأنها ستنتفعك.
اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي * يَنْفَعُكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

وَقَدْ أَرَدْتُهَا سِتًّا حَسَنًا ١١٢ وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِئَةٍ وَسِتًّا

يذكر هنا عدد أبيات المنظومة، وأنها كانت مئة وستة أبيات، فزادها ستة أبيات، فصار المجموع مائة واثنى عشر بيتًا.

وفي بعض النسخ: (**وقد أردفتها تسعًا حسنًا**)؛ (**تسعًا**) مكان (**ستًا**)، وعلى هذا سيصير المجموع مئة وخمسة عشر. كيف تكون مئة وخمسة عشر؟
لو رجعنا إلى البيت السابع والعشرين، والثامن والعشرين:

وَتَذَكَّرُ قَوْلِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ ٢٧ وَتَغْرِطُهَا إِذَا عَنْهَا شُغِلْنَا

لَسَوْفَ تَعُضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا ٢٨ وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْنَا

كنا أخذنا أن في رواية مكان هذين البيتين ثلاثة أبيات:

وَتَذَكَّرُ قَوْلِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ * إِذَا حَقَّ بِهَا يَوْمًا عَمِلْنَا

وَأِنْ أَهْمَلْتَهَا وَبَبَذْتَ نَصْحًا * وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْنَا

فَسَوْفَ تَعُضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا * وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْنَا

وإذا رجعت أيضًا إلى البيت التاسع والعشرين:

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ ٢٩ قَدْ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفَلْنَا

في بعض النسخ زيادة بيت بعده:

فَرَاغَهَا وَدَعَّ عَنْكَ الْهُوَيْنَا * فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْنَا

فهذان بيتان، والثالث ما في بعض النسخ من زيادة بيت بعد قوله:

(وَقَدْ أَرَدْتُهَا)، هو خاتمة القصيدة، وهو:

وَصَلِّ عَلَى تَمَامِ الرُّسُلِ رَبِّي * وَعِثْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ مَا ذُكِّرْنَا

عتره الرجل: نسله ورهطه الأدنؤن.

أي: صلِّ يا ربِّ على تمام الرسل وخاتمهم وعلى عترته الكريمة صلاة دائمة ما ذكرك
الذاكرون.

زيادة هذه الأبيات الثلاثة تكون القصيدة مئة وخمسة عشر بيتًا، وعلى عدم
اعتبارها هي مئة واثنان عشر بيتًا.

نسأل الله أن يغفر لأبي إسحاق الإلبيري، وأن يجزيه خير الجزاء، وأن يعلي مقامه في
الجنة، ولأبي بكر كذلك، وأن ينفعنا بهذا الذي تعلمناه منه، وأن يعيننا على العمل به.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.

